مِنَ السَّكِينَةِ والسُّكُونِ

شَرح قصِيدَةِ

«لا يَكثُر هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ»

للإمام الحدّاد

شرح العلاّمة الحبيب

عُمَرَ بِنِ مُحَمَّدِ بنِ سَالِمِ بنِ حَفِيظ

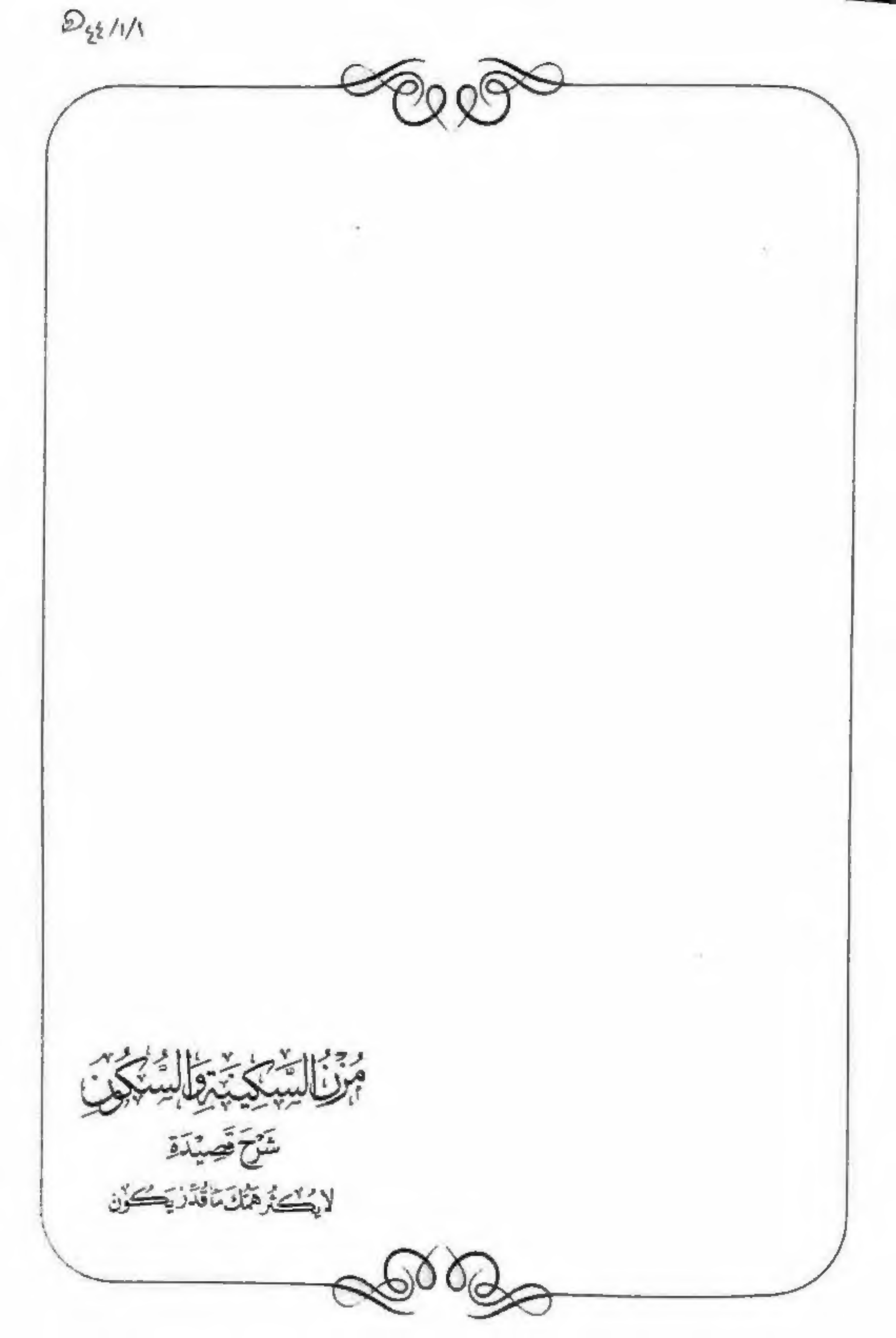
ابنِ الشَّيخِ أَبِي بَكرِ بنِ سَالِمْ

بَاعَلَوِي الحُسَينِي

نفع الله به وبعلومه

مكتبة تريم الحديثة

طباعة - نشر - توزيع



١/١/٤٤هـ

مُزنُ السَّكِينَةِ والسُّكُونِ

شَرْحُ قَصِيدَة

لا يُكثِرُ همَّكَ ما قَدَّرَ يكونُ



رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب ( ) لعام 2021 م . الجمهورية اليمنية م/ حضرموت

اسم الكتاب	مُزْنُ السَّكينةِ والسُّكُونِ		
تأليف السيّد	عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ		
عدد الصفحات	146	قياس القطع	17x24

التنفيذ الطباعي

مكتبة تريم الحديثة
طباعة - نشر - توزيع
اليمن - حضرموت - تريم

للتواصل والاستفسار

المكتبة +96   5 417130
الادارة +967 777418130
المبيعات +967 771418130

إشراف

مكتب النور



مُزْنُ السَّكِينَةِ والسُّكُونِ

شَرحِ قَصيدَةِ

لا يُكثِرُ همُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

للعَلَّامَةِ العَارِفِ بالله الحبيب: عبدِالله بن علوي بن محمَّدِ الحدَّاد

شرح العلامة الحبيب

عُمَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ سَالِمِ بْنِ حَفِيظ

ابْنِ الشَّيخِ أَبِي بَكْرِ بْنِ سَالِمِ

AL NOOR

تريم – حضرموت

Tarim - Hadramout

هذا الكتاب تم جمعه من دروس ألقاها الحبيب العلامة عمر بن محمد بن حفيظ في الدورة الخامسة والعشرين بدار المصطفى لعام 1440هـ




بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة مختصرة عن صاحب القصيدة

الحبيب عبدالله بن علوي بن محمد الحداد

هو السيد الشريف والإمام العظيم والبحر الواسع جامع الأوصاف العلمية وبحر العلوم اللّدنية قطب الدعوة والإرشاد عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد العلوي. ينتسب إلى سلالة الإمام علوي عمِّ الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي[1]، وينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وفاطمة الزهراء، بنت الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولد الإمام الحداد في مدينة تريم يوم الاثنين (٥/ صفر سنة ١٠٤٤هـ) ولمّا بلغ من العمر أربع سنواتٍ فَقَدَ بصره وذلك بسبب مرض الجدري، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى عوّضه بنور البصيرة فما أسعده بهذا التعويض، فحفظ القرآن وجدَّ واجتهد في طلب العلم، فقرأ أمهات الكتب واستوعبها وأخذ عن شيوخ عصره العلوم المختلفة فحفظها.

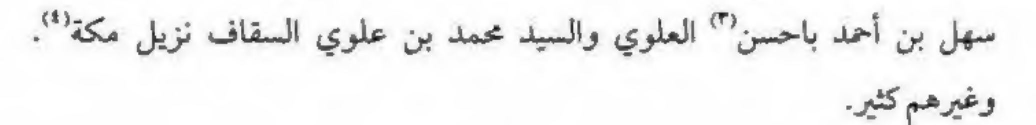
يقول الإمام الحداد عن نفسه: (كنت من حين الصغر وأنا في الجدِّ والعبادة وأنواع المجاهدة)[2].

وأما عن شيوخه: فمنهم السيد الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس[3]، والسيد الحبيب عقيل بن عبدالرحمن السقاف[1]، والسيد عبدالرحمن بن شيخ عيديد[2]، والسيد

١- (١) الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي: شيخ الشريعة وإمام الحقيقة، سيد الطائفة الصوفية بحضرموت، ولد بتريم وتوفي بها سنة ٦٥٣هـ (المشرع الروي) للشلي (٢/ ٧).

٢- (٢) الإمام الحداد هو مجدد القرن الثاني عشر، د/ مصطفى البدوي (ص٠٤).

٣- (٣) عمر بن عبدالرحمن العطاس نبغ في العلوم وصحبه خلق كثير وانتفع به نفعا عظيما، ولد بتريم وتوفي بحريضة سنة ١٠٧٧هـ (المشرع الروي).



سهل بن أحمد باحسن[3] العلوي والسيد محمد بن علوي السقاف نزيل مكة[4].
وغيرهم كثير.

تشبَّع هذا الإمام العظيم منذ طفولته بمختلف العلوم الدينية والصوفية ابتداءً من الإرشاد والبداية ومروراً بالإحياء ومؤلفات الإمام الغزالي، فتوسعت مداركه وانفتحت له أبواب الفتوح المختلفة فكان بحقٍ قطب الدعوة والإرشاد، وكعبة المريدين الذين أخذوا عنه العلوم المختلفة، وأبرزهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام أحمد بن زين الحبشي[5] صاحب حوطة أحمد بن زين التي تُنسب إليه، وهو إمام عظيم شرح عينية الإمام الحداد في كتابٍ مطوّل يُعدُّ قاموساً في أعلام الطريقة.

من تلامذته ابنه الحسن[6] بن الإمام الحداد والسيد العلامة عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه[7]، والسيد الحبيب محمد بن زين بن سميط[8] والسيد عمر بن زين بن سميط[9] والسيد عمر بن عبدالرحمن البار[10]، والسيد علي بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف[1] والشيخ العلامة أحمد عبدالكريم الشجار[2] والشيخ سليمان بن محمد باحرمي. [3].

٤- (١) عقيل بن عبدالرحمن السقاف ولد بتريم وتوفي بها سنة ٨٧١هـ (تاريخ شنبل ١٩٣).

٥- (٢) عبدالرحمن بن شيخ عيديد: كان من كبار العلماء العاملين والأئمة المجتهدين، إذا رأى منكراً بادر إلى إزالته ولا يخاف في الله لومة لائم، صحب أبي بكر بن سالم، وأخذ عنه الحداد، توفي سنة (١٠٦٨هـ).

٦- (٣) سهل بن أحمد باحسن: إماماً فاضلاً عالماً، ولد بتريم وولي بها القضاء، وتوفي بها سنة (١٠٧٦هـ).

٧- (٤) محمد بن علوي السقاف إمام الحرمين نادرة الزمان ولد سنة ١٠٠٢ وتوفي سنة ١٠٧١هـ (المشرع الروي) (١/ ١٩٢).

٨- (٥) أحمد بن زين الحبشي: إماماً في العلوم العقلية والنقلية توفي بخلع راشد سنة ١١٤٥هـ (شمس الظهيرة) (٢/ ٤٧١).

٩- (٦) الحسن بن عبدالله الحداد: ذا وجاهة وتقوى وسخاء ولد بتريم وتوفي بها سنة ١١٨هـ (شمس الظهيرة) (٢/ ٥٦٣).

١٠- (٧) عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه: علامة الدنيا من كبار العلماء والأئمة ولد بتريم وتوفي بها سنة ١١٦٢هـ (عقد اليواقيت) (٢/ ٦٧).

١١- (٨) محمد بن زين بن سميط توفي بشبام ١١٧٢هـ (عقد اليواقيت) (٢/ ٦٧).

١٢- (٩) عمر بن زين بن سميط: كان من الأئمة المجتهدين والعلماء المحققين والأولياء المشهورين، توفي بشبام (١٢٠٧هـ).

١٣- (١٠) عمر بن عبدالرحمن البار: إمام الأئمة الأخيار، من كمل العلماء العاملين والأئمة المحققين المجتهدين شديد الزهد والورع ولد بالقرين وتوفي بها سنة (١١٥٨هـ). ابن سميط: (بهجة الفؤاد).



وفي يوم الثلاثاء السابع من ذي القعدة سنة (١١٣٢هـ) توفي الإمام الحداد مخلّفاً وراءه الذِّكر الحسن والمؤلفات والرسائل في مختلف العلوم الدينية والاجتماعية والصوفية متأثراً في جلِّها بمنهج الإمام الغزالي، فانتشرت مؤلفاته في بقاع الأرض وتُرجمت إلى لغات عديدة.

مؤلفات الإمام الحداد:

مؤلفات الإمام الحداد كثيرة ومتنوعة شملت علوم الشريعة والدين وطرق ومسالك أهل التصوف والزهد والعقيدة والأذكار والأدعية والحكم والاجتماع، فهي في جملتها منهج متكامل للدارس الباحث عن الحقيقة الراغب في النجاة.

من مؤلفاته:-

١- كتاب النصائح الدينية والوصايا الإيمانية.

٢- كتاب سبيل الادكار والاعتبار.

٣- الدعوة التامة والتذكرة العامة.

٤- الفصول العلمية والتذكرة الحكمية.

٥- تثبيت الفؤاد.

٦- رسالة المذاكرة مع الإخوان والمحبين.

٧- رسالة المعاونة والمظاهرة والمؤازرة للراغبين من المؤمنين في سلوك طريق الآخرة.

١٤-(١) علي بن عبدالله بن عبدالرحمن بن علي السقاف: كان من كبار الأولياء والعلماء العاملين شديد التواضع يخدم الفقراء توفي بسيئون (١١٨١هـ).

١٥- (٢) شهاب الدين أحمد بن عبدالكريم الشجار الإحسائي لازم الإمام الحداد سبعة عشر عاما على الدوام وكان ذا حفظ للعلم كتب جميع مؤلفات الإمام الحداد بقلمه وحفظ من كلامه وكراماته لكثرة ملازمته له سافر بعد وفاة الحداد وأقام في الإحساء على سيرة حميدة عابدا وناسكاً...(بهجة الزمان للحبيب محمد بن زين بن سميط.صـ٢٩٤-٢٩٥).

١٦-(٣) لمعرفة المزيد من تلاميذ الإمام الحداد، ينظر إلى كتاب رحلة في ديوان الحداد (صـ٢٥).

٨- النفائس العلوية في المسائل الصوفية.

٩- آداب سلوك المريد.

١٠- وسيلة العباد إلى زاد المعاد.

١١- الورد اللطيف.

١٢- الراتب الشهير

١٣- الدّر المنظوم لذوي العقول والفهوم (ديوان الإمام الحداد).

نبذة مختصرة عن صاحب الكتاب

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

هو الدَّاعي الإسلامي العلّامة عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ العلوي الحسيني ولد بمدينة تريم بحضرموت ـ الجمهورية اليمنية ـ يوم الاثنين الرابع من شهر محرم لعام ١٣٨٣هـ ـ الموافق ٢٧ من شهر مايو ١٩٦٣م ـ ونشأ بها وحفظ القرآن العظيم، وتربى تربية صالحة في أحضان والده في بيئة العلم والإيمان والأخلاق الفاضلة:

أخذ علوم الشريعة المطهرة على أيدي مَن أدركهم من علماء حضرموت ومن أجلهم والده مفتي تريم.

ابتدأ التدريس وعمل في الدعوة إلى الله وهو في الخامسة عشر من العمر مع مواصلة التعلم والأخذ والتلقي.

ثم لما اشتد الوضع بسبب الحكم الشمولي الشيوعي في ذلك الوقت انتقل إلى مدينة البيضاء باليمن في أوائل شهر صفر عام ١٤٠٢هـ الموافق شهر ديسمبر ١٩٨١م وأقام في رباط الهدار بالبيضاء. وكان حريصاً على عقد الدروس والمجامع العلمية، كثير الخروج للدعوة إلى الله في مختلف مناطق البيضاء والحديدة وتعز..

تردد على الحرمين الشريفين بدءاً من شهر رجب عام ١٤٠٢هـ الموافق شهر إبريل ١٩٨٢م ـ وأخذ عن علمائها..

في عام ١٤١٣هـ الموافق ١٩٩٢م انتقل إلى مدينة الشحر بمحافظة حضرموت حيث واصل إقامة الدروس في رباط الشحر للدراسات الإسلامية،



وأقام قبلها مدة سنة ونصف تقريباً في سلطنة عمان.

ثم انتقل منها إلى مدينة تريم حيث استقر به المقام فيها واستقبل أعداد الطلاب القادمين عليه من أنحاء مختلفة من العالم. وابتدأ تأسيس دار المصطفى للدراسات الإسلامية عام (١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٤م) على ثلاثة مقاصد:

- أخذ علوم الشريعة وما اتصل بها بالتلقي عن أهلها بأسانيدهم.
- تزكية النفس وتهذيب الأخلاق.
- نشر العلم النافع والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

له العديد من الرحلات في الدعوة إلى الله ونشر العلم الشرعي إلى مختلف الأقطار كالشام ومصر والسودان والهند وباكستان وإندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وبروناي وسيريلانكا وكينيا وتنزانيا وجزر القمر ودول الخليج العربي واتصل بأسانيد كثير من العلماء في تلك الأقطار كما شارك في حضور عدد من المؤتمرات الإسلامية.

مؤلفاته:

١. إسعاف طالبي رضا الخلاق ببيانِ مكارمِ الأخلاق.

٢. توجيهات الطلاب.

٣. شرح منظومة السَّند العلوي.

٤. خُلُقنَا.

٥. الذخيرة المشرفة. وقد ترجم بعدة لغات.

٦. الخلاصة في الأذكار.

٨. الضياء اللامع بذكر مولد النبي الشافع.

٨. الشراب الطهور في ذكر سيرة بدر البدور.

٩. فيض الإمداد في خطب الجمعة والكسوفين والاستسقاء والأعياد.

١٠. المختار من شفاء السقيم.

١١. ثقافة الخطيب.

١٢. نور الإيمان من كلام حبيب الرحمن.

١٣. ديوان شعر (فائضات المن من رحمات وهاب المنن)

١٤. سلسلة معالم الدعاة في طريق حبيب الله

١٥. الوصية.. للعاملين في صفوف الدعوة المحمدية.

١٦. منطلقات في بناء ذوات الداعيات.

١٧. تعايش المسلمين مع غيرهم.

١٨. مسلك أهل الفطن في شرح قصيدة «ما لذة العيش لأبي مدين».

١٩. الوسطية في الإسلام.

٢٠. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.

٢١. مقاصد حلقات التعليم ووسائلها.

٢٢. الحياض المطهرة لواردي المدينة المنورة .

٢٣. زاد الناسك من أدعية آداب المناسك.

٢٤. سعادة المعاد والمحيا شرح قصيدة «إذا شئت أن تحيا».

٢٥. الصلوات بأسماء الله الحسنى على جامع الصفات الحسناء.

٢٦. توجيه النبيه لمرضاة باريه.

٢٧. قبس النور المبين من أحياء علوم الدين.

٢٨. الاتصال بمعاني اليقين والقرب والسَّعادة وحقيقة الخلافة .

٢٩. كتاب صلاح الأسرة ودور الأبوين في التربية (١-٢) .

٣٠. مدرسة حضرموت ومرجعية الوحي والتنزيل.

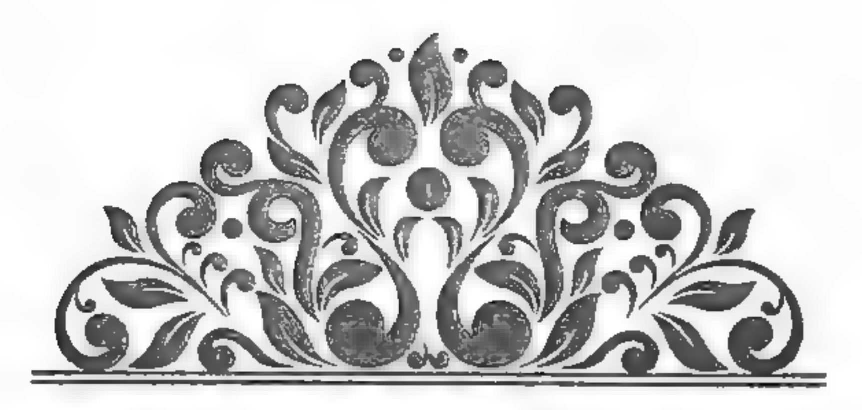
٣١. ماهية التصوف وسمات أهله.

٣٢. المورد الأعذب الزلال من معاني رشفات أهل الكمال ونسمات أهل الوصال (الجزء الأول)

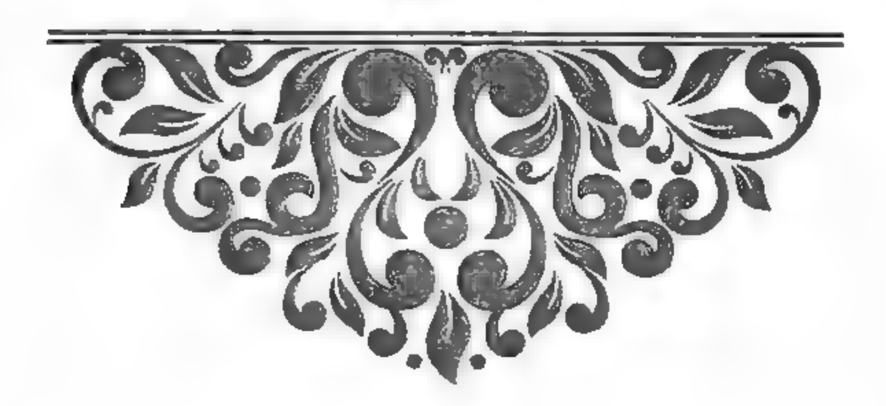
٣٣. المورد الأعذب الزلال من معاني رشفات أهل الكمال ونسمات أهل الوصال (الجزء الثاني)

٣٤. المورد الأعذب الزلال من معاني رشفات أهل الكمال ونسمات أهل الوصال (الجزء الثالث)

٣٥. فقه الطريقة والاستمساك بالعروة الوثيقة .



القصيدة





لا يَكثُرُ هَمُّكْ * ما قُدِّرْ يَكُونْ

للإمَام العلامَة عبدالله بن علوي بن محمَّدِ الحدَّاد

إلـزَمْ بَـابَ رَبِّـكْ * واتـرُكْ كُـلَّ دُونْ
واسْـأَلْهُ السَّـلامَةْ * مِـن دَارِ الفُتُـونْ

لا يَضِيقْ صَدْرُكْ * فالحَـادِثْ يَهُـونْ
اللهُ المقَـــدِّرْ * والعَـالَمْ شُـؤُونْ

لا يَكثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

فِكرَكْ واخْتِيَارَكْ * دَعْهُـمَـا وَرَاكْ
والتَّـدْبِيرَ أَيْضَـا * واشْهَدْ مَن بَرَاكْ

مَـوْلاكَ المُهَـيْمِنْ * إنَّـــهُ يَـــرَاكْ
فَوِّض لَهْ أُمُورَكْ * واحْسِنْ في الظُّنُونْ

لا يَكثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

لَـوْ وَلَمْ وَكَيْـفَ * قَـولُ ذِي الحَمَقْ
يَعْتَرِضْ عَلى الله * الـذِي خَلَـقْ

وَقَضَـى وَقَـدَّرْ * كُـلَّ شَيْ بِحَـقْ
يَـا قَلبِـي تَنَبَّـهْ * واتـرُكِ المُجُـونْ

لا يَكثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

قَـد ضَـمِنْ تَعَـالى * بِـالرِّزْقِ القَـوَامْ
في الكِتَابِ المُنَزَّلْ * نُـورًا للأنَـامْ

فالرِّضَـا فَرِيْضَـةْ * والسَّـخَطْ حَـرَامْ
والقُنُـوعْ رَاحَـةْ * والطَّمَـعْ جُنُـونْ

لا يَكثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

أنـتَ والخَلائِـقْ * كُلُّهُـمْ عَبِيـدْ
والإلَــهُ فِينَـا * يَفْعَـلْ مَـا يُرِيـدْ

همُّكْ واغْتِمَامُكْ * وَيحَكْ مَـا يُفِيـدْ
القَضَـا تَقَـدَّمْ * فَـاغْنَمِ السُّكُونْ

لا يَكثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

الَّذِي لِغَيْرِكْ ❋ لَا يَصِلُ إِلَيكْ وَالَّذِي قُسِمْ لَكْ ❋ حَاصِلٌ لَدَيكْ

فَاشْتَغِلْ بِرَبِّكْ ❋ وَالَّذِي عَلَيكْ فِي فَرْضِ الحَقِيقَةْ ❋ وَالشَّرْعِ المَصُونْ

لَا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

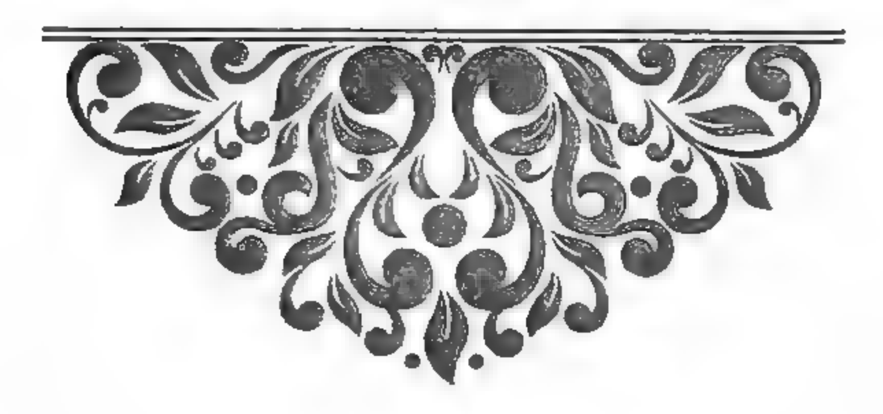
ثُمَّ نُصَطَفَى ❋ الهَادِي البَشِيرْ خَتْمِ الأَنْبِيَا ❋ البَدْرِ المُنِيرْ

صَلَّى اللهُ عَلَيهْ ❋ الرَّبُّ القَدِيرْ مَا رِيحُ الصَّبَا ❋ مَالَتْ بِالغُصُونْ

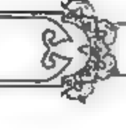
لَا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ



شرح أبيات القصيدة





بسم الله الرحمن الرحيم

اِلـزَمْ بَـابَ رَبِّكْ ❊ واتـرُكْ كُـلَّ دُونْ واسْـأَلْهُ السَّـلامَةْ ❊ مِـن دَارِ الفُتُـونْ
لا يَضِيقُ صَدْرُكْ ❊ فالحَـادِثْ يَهُـونْ اللهُ المقَـــــدِّرْ ❊ والعَـالَمْ شُـؤُونْ
لا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

الحمدُ لله على ما طَوَى في أقْوالِ أهلِ قُرْبِهِ مِن مَعانٍ؛ يَسَّرَ الوصولَ إليها على كلِّ مُتَدَبِّرٍ لَـهَا ومُتَأَمِّلٍ لِـمَا حَوَتْهُ في سُطُورِها وما انطوى فِيهَا.

نَشْهَدُ أنَّه اللهُ الذي لا إله هُوَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه، العَالِـمُ المُحيطُ بكلِّ مَا ظَهَرَ وما بَطَنَ، ونَشْهَدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا وقُرَّةَ أعيُنِنا ونُورَ قُلوبِنا محمَّداً عَبدُه ونبيُّه ورسولُه وحبيبُه المؤتمَنُ.

اللهم أَدِمْ صَلواتِك على المجتبى المصطفَى جَدِّ الحُسَين والحَسَن، مَن جَمَعْتَ له الحُسنى في كلِّ فنٍّ، وجَعلتَه المُقدَّمَ على كلِّ محبوبٍ لَكَ في السِّرِّ والعَلَنِ، وصلِّ مَعَهُ على آلِهِ المطهَّرين عَن الدَّرَن، و أصحابِهِ الماشينَ في أقْوَمِ سَنَنٍ، وعَلى مَن تَبِعهُم بإحسانٍ على مَدَى الزَّمَنِ، وعلى آبائِهِ وإخوانِهِ مِن الأنبياءِ والمرسلينَ المرتقين أعلى القُنَنِ، وعلى آلهم وصَحبِهم والملائِكَةِ المقرَّبينَ وعِبادِكَ الصَّالحين الذين سَلَّمْتَ قُلوبَهم مِن كُلِّ زَيْغٍ وضَغَنٍ، وعلينا مَعَهُم وفِيهم برحمتك يا أرحم

الراحمين .. وَبَعْدُ

ففي هذه الأبياتِ دَعوةٌ إلى مَعاني لا إله إلا الله .

يقولُ الإمامُ الحدَّادُ في بداية القصيدَةِ :

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) : أي اِلْزَمِ الوُقوفَ على بَابِ الله؛ بالاعْتِمادِ عَليه، والاسْتِنادِ إليهِ، والثِّقَةِ بِهِ، وإِنْزَالِ حَاجَاتِكَ بِه، وَرَجائِكَ فِيه .

قِفْ على بَابْ مَا يَقْلِدُهْ(١) يَا سَعِدْ قَالِدْ

بَـابَ مَـولاكَ لي(٢) مِنـهُ وُرُودُ الفَوَائِـدْ

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) : بِطَاعَتِهِ التي أَسَاسُها ورأسُها تَرْكُ المُحَرَّمَاتِ والشُّبُهَاتِ ثم تَرْكُ المكروهاتِ .

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) : شُهودًا لِعَظَمَتِهِ، وخُضُوعًا لجلالِه، وتَعَرُّضًا لِنَوالِه.

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) : مُعْتَرِفًا بما كانَ مِنْكَ، ورَاجِيًا ما يكونُ مِنْهُ، وخَائفًا مِن غَضَبِه، وذاكرًا له بالتَّعظيمِ والإجلالِ والإكبارِ والمحبَّةِ.

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) : بِمُوالاةِ أوليائِهِ وأَصْفِيائِهِ ومُعَادَاةِ أَعْدائِهِ .

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) : في وُجْهَتِكَ إلى الحقِّ؛ ويَقِينِك أنَّك عَبدُهُ، وأنَّ الأمرَ بِيدِهِ، وأنَّ مَرجِعَكَ ومَرجِعَ جميعِ الخَلائقِ إليه.

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) : في طَلَبِ مَرضَاتِهِ والاستعدادِ لِلِقائِه.

(١) يقلده : أي يغلقه .

(٢) لي : الذي .

(الزَمْ بَابَ رَبِّكْ) بالعَملِ بآدابِ نَبيِّه.

هذا معنى لُزُومُ البَابِ؛ أنْ تَترُكَ ما نَهاكَ عنه، وتُحسِنَ فِعْلَ ما أمَرَكَ بِهِ، وتَعْمَلَ على اسْتِدَامَةِ حُضورِ قَلْبِكَ مَعَهُ؛ وتَسْتَشْعِرَ عَظَمَتَهُ، وأنَّه يَراكَ ومُطَّلِعٌ عليك، وأنَّك بينَ يديه و رَاجِعٌ إليه .

فَدَاوِمْ اسْتِشْعَارَ ذَلكِ بالقَلْبِ مُلازِمًا البابَ.

ولكن كُلُّ ما ذَكَرْنَا مِن تَرْكِ الذُّنُوبِ والمعَاصِي والمكروهَاتِ والشُّبُهَاتِ، ومِن فِعْلِ الواجِباتِ والمندُوباتِ والمسنُونَاتِ، ومِن الاستقامَةِ وحُضورِ القلبِ والذِّكر؛ لا يَتِمُّ إلا بالائتمامِ بخيرِ الأنَامِ، فهو البَابُ والقُدْوَةُ، ومَن لازَمَ بَابَ ربِّه لازَمَ حُسنَ الصِلَةِ بحَبِيبِه، كما قَالَ الإمامُ الحدَّادُ في قَصِيدَتِهِ الأُخْرَى مخاطبًا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ :

أنتَ بَابُ الله نَالَ المُرتَجى ... و الأمَانِيَ مَنْ عَلَيهِ وَقَفَا

أنتَ حَبْلُ الله مَن أمْسَكَهُ ... فَازَ بالخيرِ وبِالعَهْدِ وَفَا

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

ونِعمَ الرفيقُ هَؤلاء، وإذا لَكَ رَفِيقٌ مِن هؤلاء نِلْتَ الشَّفَاعَةَ يومَ القِيامَةِ.

أمَّا الكُفَّارُ والفُجَّارُ والأشرَارُ والفُسَّاقُ والمنافقونَ فَبِئسَ الرَفِيق، كما قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ

ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]

فما أَذَلَّهُ وما أَتْفَهَهُ مِن قَرِينٍ .

فما بَالُ المسلمين اليومَ يتسابَقُونَ إلى بِئْسَ القَرينِ، ويَنْقَطِعُونَ عَن نِعْمَ القَرِين؟

ما هَذا الإهمالُ والتَّبَلُّدُ في الحِسِّ؟

اللهم أَيقِظْ قُلوبَ المسلمين .

وإنَّ وُقوفَ مخلوقِينَ على أبوابِ مخلُوقِينَ أمرٌ مَشِينٌ، ولابُدَّ أن ينقَطِعَ ويتلاشى ولو بَعْدَ حِين .

لكنَّ شَرَفَ الوُقُوفِ على بَابِ الحيِّ الذي لا يموتُ شَرَفٌ به يحوزُ الدَّرَجَاتِ العُلى مَن قَامَ بحقِّ ذلك الوقوفِ، فلم يَزَلْ واقفًا بِوادي الفضْلِ، عاكفًا فيه، ينهلُّ عليه جودُ الله في كلِّ سَاعةٍ وحِينٍ.

وإنْ كانَ لأَيِّ أحدٍ مِنكم مَطلبٌ دينيٌّ أو دُنيويٌّ أو برزخيٌّ أو أُخرَوِيٌّ فَلْيُنْزِلْهُ بِبَابِ رَبِّه، ولْيَسْأَلْهُ مِنه، ولْيَتَوَجَّهْ إلى الله في تحصيلِهِ في هذِهِ الأيامِ والليالي والجلسَاتِ والجُمُعَاتِ.

وإنْ كانَ لأحدٍ مِنكم مرهوبٌ مِن أيِّ ضَرَرٍ يخافُهُ في الدِّينِ والدُّنيا والبرزخِ والآخرةِ فلْيُنْزِلْهُ ببابِ الله، ولْيَسْتَعِذْ مِنه، ويَسْتَكْفِهِ شرَّه، فإنَّه البَرُّ اللطيفُ الكَافِي .

قال الإمامُ الحدَّادُ :

واسْـتكْفِ ربَّـكَ كُـلَّ هَـمٍّ إنَّـهُ　　سُبحَانَهُ الـبَرُّ اللطيـفُ الكَـافِي

واسْـأَلهُ أنْ يُلْبِسَـكَ ثَـوبَ إِنَابَـةٍ　　وَسَـلامَةٍ وهِدَايَـةٍ وعَـوَافِي

فنحنُ والخلائِقُ مُضْطَرُّون إلى حُسْنِ لُزوم بَابِ الخالِقِ؛ ولكن ما أغربَ أنْ يكونَ صَاحِبُ الحاجَةِ والاضطرارِ جاهلًا لحَاجَتِهِ واضْطِرارِه.

وَمَا دُمتَ في هذهِ الرِّحاب وفي أيَّامِ هذه الدَّورةِ فَسَهْلٌ عليكَ لُزُومُ البَّابِ.. فتعلَّمْ لُزُومَ بَابِ الرَّحمنِ؛ فإنَّ الأكابِرَ لم يَبْرَحُوا مُلازِمينَ بَابَ مَولاهم، يقولُ الإمامُ الحدَّادُ :

لَـمْ أزَلْ بِالبَـابِ وَاقِـفْ　　فَـارْحَمَنْ رَبِّي وُقُـوفِي

وَبِوَادِي الفَضْـلِ عَاكِفْ　　فَـأَدِمْ رَبِّي عُكُـوفِي

وَلِحُسْـنِ الظَّـنْ ألَازِمْ　　فَهْـوَ خِـلِّي وَحَلِيفِـي

وَأَنِيسِـي وجَلِيسِـي　　طُـولَ لَـيْلِي وَنَهَـارِي

وهذا سَيرٌ حَمِيدٌ، وَمَسْلَكٌ رَشِيدٌ، وَطَرِيقٌ سَدِيدٌ .

ومَن وَقَفَ عَلى البَابِ بالأَدَبِ رُحِمَ وفُتِحَ لَهُ البَابُ، ولا يعكُفُ على ذلك البابِ، ويُلازِمُ العُكوفَ عليه بِحُسْنِ الآدابِ، إلا خَاصَّةُ الخَلْقِ مِن أولي الألبابِ.

وإنَّ أعلى فُرْصَةٍ تَجِدُهَا في الحياةِ أنْ تَتَزوَّدَ فيها لحُسْنِ لِقَاهُ، فتلقَاهُ وهو راضٍ عنك، فَمُلْكُ الدُّنيا بما فيها لا يُساوي في الدَّرَجةِ والرِّفْعَةِ والمكانَةِ والسَّعادَةِ وإدراكِ الحقائِقِ واللَّذَةِ على الدوامِ ذَرَّةً مما يَجِدُهُ مَنْ كَسَبَ لحظةً في الأَدَبِ مَعَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وجَمْعُ المالِ مَعَ تَضْييعِ الأَدَبِ مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وكذلِكَ الإيواءُ إلى الشَّهَواتِ والاعتمادُ على غيرِ الله لا يُغْنِي أصْحَابَهُ شيئًا، ولا يَنْفَعُهم أبدًا، كما أخْبَرَ تَعالَى عَن حَال المشركين بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر ٨٤ - ٨٥]

فَرِحُوا بما عِندَهم مِن العِلمِ؛ فكذَّبُوا الرُّسُل؛ ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١]

وإذا أردْتَ أن تَعْرِفَ كيفَ الصِّدقُ في لُزُومِ البَّابِ، فاقْطِعِ الأَسْبَاب.

(واتْرُكْ كُلَّ دُونْ) : أي ارْفُضْ كلَّ قاطِعٍ يَقْطَعُكَ عَنِ الله وعَنْ رسولِهِ، وتخلَّص مِنه، فليس فيه خيراً لكَ ولا سَعادةٌ ولا رِفْعةٌ، بل فيه ضُرُّكَ .

(واتْرُكْ كُلَّ دُونْ) : اِتْرُكْ مُجالَسَة أهلِ الغَفْلَةِ، ولا تكنْ مِن الغافِلين، واتْرُكْ استماعَ أقاويلِ أهلِ الأباطيلِ والأضاليلِ، وكُنْ عَن اللَّغْوِ مُعرِضًا تَكُنْ لِلفَضْلِ مُتَعَرِّضًا.

(واتْرُكْ كُلَّ دُونْ) : فلا تَعْتَمِدْ على غيرِهِ، ولا تَثِقْ بِسِواهُ، ولا تَسْتَنِدْ إلى مَن عَدَاه، ولا تَرْجُ غَيرَهْ، ولا تَخَفْ مِن غَيرِه، ولا تَركَنْ إلى المُزَيَّفِ، ولا تتمسَّكْ بالزائلِ الفَاني المنقطع .

(واتْرُكْ كُلَّ دُونْ) : اتْرُكْ كلَّ تَصَوُّرٍ يُصَوِّرُ لك الكَوْنَ على غَير ما عَلَّمَكَ

خالقُ الكَونِ جَلَّجَلَالُهُ، فلا أعْلَمَ بهذا الكَونِ مِن مُكوِّنِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فلا يجوز أن تَسْتَعْبِدَنا الاتجاهاتُ التي يَرعاهَا إبْلِيسُ وجُنْدُهُ على ظَهْرِ الأرضِ، فيُوحُون إلينا تَحسِينَ ما ليس بِحَسَنٍ عِندَ ربِّنا، أو تَقبيحَ ما هو حَسَنٌ عند ربِّنا فنتَّبِعَهم.

عَارٌ علينا وحرامٌ وخُسرانٌ أنْ نُسْتَعْبَدَ لِغير الله في فِكرٍ، أو تَصوُّرٍ، أو نَظَرٍ إلى شيءٍ مِن شؤونِ الحياتين والأكوانِ كلِّها.

(واتْرُكْ كُلَّ دُونْ) : حتى تَسْلَمَ مِن الهُون، فإنَّ قَوماً اغْتَرُّوا بشيءٍ مِن أموالِهِم وأحوالِهِم وتَرَفِهِم في الحَياةِ يُقالُ لهم يوم القِيامَةِ : ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]

(واتْرُكْ كُلَّ دُونْ) : اِتْرُكْ كلَّ مَا دُونَ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى مما لا يُقَرِّبُكَ إليه ولا يَصِحُّ أنْ تَقْصُدَ بِهِ وجَهَهُ.

اترك كُلَّ قَولٍ لا يَصِحُّ أن تَقصُدَ به وَجْهَهُ، وكُلَّ نَظَرٍ لا يَصِحُّ أنْ تَقْصُدَ بِهِ وجهَهُ، وكُلَّ سَماعٍ لا يَصِحُّ أنْ تَقْصُدَ به وَجْهَهُ.

وبهذَا العَزْمِ والجَزْمِ لا تَرْكَنْ إلا إلى فَضلِهِ عَليكَ، والتجائِكَ إليه، لا إلى نَفْسِكَ ولا حَولِكَ ولا قُوَّتِكَ، و...

(اسْأَلْهُ السَّلامَةْ مِن دَارِ الفُتُونْ) : اِسْأَلْ رَبَّكَ الحِفْظَ مِن دارِ الفتون؛ وهي الدُّنيا؛ دارُ الابتلاءِ والاختِبَارِ، لِتَسْلَمَ مِن شُرُورِهَا ومُلهِيَاتِها وزَخَارِفِها وكَذِبِها

وخِداعِها وفِتَنِها.

وقد جاء في الأثرِ أنَّ سيِّدَنا عِيسَى ابْنَ مَرْيمَ عَليهِ السَّلامُ رَأى الدُّنيَا فِي صُورَةِ عَجُوزٍ، عَلَيهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ، فَقَالَ لَهَا: كَمْ تَزَوَّجْتِ؟ قَالَتْ: لَا أُحْصِيهِمْ، قَالَ: فَكُلُّهُمْ مَاتَ عَنْكِ أَوْ كُلُّهُمْ طَلَّقَكِ؟ قَالَتْ: بَلْ كُلَّهُمْ قَتَلْتُ، فَقَالَ عِيسَى عليه السَّلَامُ: بُؤْسًا لِأَزْوَاجِكِ الْبَاقِينَ، كَيْفَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِأَزْوَاجِكِ الْمَاضِينَ؟ كَيْفَ تُهْلِكِينَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا وَلَا يَكُونُونَ مِنْكِ عَلَى حَذَرٍ؟"[1]

(واسْأَلُهُ السَّلامَةَ مِن دَارِ الفُتُونْ) : فإنَّ الله يَفْتِنُ الخلائِقَ في هذِهِ الدَّارِ ويختبرُهم بالغِنى والفقرِ، وبالرَّخاءِ والشِّدَةِ، وبالعُسْرِ واليُسْرِ، فكِلا الحالين اختبارٌ؛ والذين ينجَحُونَ في هذِهِ الاختباراتِ هُمُ الأقلُّونَ الأكرمُونَ، الأقلُّونَ الأعظمُونَ، الأقلُّونَ الأسعَدُونَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ⑯ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]

وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الزهد عن ليث (١/ ٣٢/ ٢٧) الناشر: دار ابن كثير، دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.



أَكْرَمَنِ﴾ : أي إذا ابتلاهُ بِشيءٍ مِن مَظَاهِرِ الرِّزْقِ والتَّيسِيرِ الحِسِّيِّ اغترَّ وافْتَخَرَ واجْتَرأَ وتَكَبَّرَ ونَسِي.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي : إذا ضَيِّق عليه في مَالِهِ أو احتياجاتِهِ المادِيَّةِ فيقول ربي أهانن، لكن قال الله : إننا لا نُكْرِمُ بمُؤاتَاةِ الأسْبابِ وإعطاءِ الأموالِ، ولا نُهِينُ بقلَّةِ المالِ والفقرِ، لكن تَقُومُ الإهانةُ والكرامةُ بِعَمَلِكُم بما نَرْضَى أو بما نَسْخَطُ.

ولذا قالوا: ما أَعزَّتِ العِبَادُ أنفُسَها بِمِثْلِ طَاعَةِ الله، ولا أذَلَّتْ أنفُسَها بمثلِ مَعْصِيَةِ الله.

قال الله : ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾[الفجر: ١٧-١٨]

فَإِكرَامُ اليتيمِ وإطعامُ المسكين هي الأعمالُ التي فِيها الكَرَامَةُ، فمَنْ وفَّقْنَاهُ لأن يُعطيَ مِن أجْلِنا، ويُسَخِّرَ مُلْكَهُ لمرضاتنا فهو المُكرَمُ، وأما الذي تَعلَّقَ وتَوَلَّعَ بغيرِنا فهو المُهانُ.

وإيُّ شيءٍ أعظمُ إهانةً مِن أنْ يَصْرِفَكَ عَن عظمَتِهِ وجلالِهِ إلى تفاهاتٍ وسَفاهاتٍ وسَقَطاتٍ وأمورٍ زائلاتٍ .

وفي هذه الابتلاء قالَ سيِّدُنا سُليمانُ عندما سألَ مَن عِندَهُ ؛ مَن مِنهمْ يَقْدِرُ على إحْضَارِ عَرْشِ بِلقِيْسَ مِن اليَمَنِ : ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾[النمل: ٣٩]

اسْتَعَدَّ العفريتُ أن يأتِيَ بالعَرْشِ قبلَ زَوَالِ الشمسِ، لكن الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ

مِن الكتاب وهو آصِف بن بَرْخِيا مِن عُلماءِ وأولياءِ أمّةِ سيِّدِنا سليمانَ قال له : ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠]

فَعَدَّ سيِّدُنا سليمانُ هذَا الأمْرَ مِن الابتلاء.

هؤلاءِ الناجِحُون في الأحوالِ كلِّها؛ إنْ كانُوا في الرَّخاءِ وإن كانُوا في الشدة .

وقد ابتُلي سيِّدُنا يُوسُفُ في غَيابَةِ الجُبِّ فنَجَحَ، ثم ابتُلِي بالرِّقِ والعُبُودِيَّةِ فنَجَحَ، ثم ابتُلِي بالسِّجنِ فنَجَحَ، ثم ابتلِي بالمُلْكِ فنَجَحَ، حتى إنَّهُ في أيّامِ مُلكِهِ كان يُكْثِرُ الصِّيَامَ، وَكَانَ كَثِيرَ الجُوعِ: وقد قِيلَ لَهُ: لِـمَ تَجُوعُ وَأَنْتَ عَلى خَزَائِنِ الأرْضِ؟ فَقَالَ: إنِّي أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ فَأَنْسَى الجَائِعَ[1].

فاسأَلْ ربَّك السَّلامة مِن دارِ الفتون، فإنَّه لو سَلَّطَ عليك أمْراً يَسِيراً حقيراً رُبَّما ضَاعَ إيمانُك، أو ضَاعَتْ رَابِطَتُك بالحقِّ ورسولِه، أو ضَاعَتْ آخِرَتُك.

وكان الفضيلُ بن عياضٍ إذا قَرَأَ قولَهُ تَعَالى : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣١] يقول: اللَّهُم لا تُبلِنا فإنَّكَ إنْ بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا.

وقد أُمِرنَا في التَّشهُّدِ أن نتعوَّذَ مِن فتنَةِ المحيا والمماتِ.

---

(١) ذكره أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي في كتابه : المجالسة وجواهر العلم عن وهب بن مُنَبِّهٍ (٢/٤٦/١٩٢) الناشر : دار ابن حزم (بيروت - لبنان) ١٤١٩هـ

وفِتْنَةُ المحيا : ما يُعْرَضُ لَكَ في الحياةِ مِن أنواعِ الاختباراتِ والابتلاءاتِ، و فِتْنَةُ المماتِ: ما يُعْرَضُ عندَ سكرات الموتِ والغَرْغَرَةِ .

اللهم لا تُعَرِّضْنَا لِمِحْنَةٍ ولا لِفِتنةٍ ولا لبَلِيَّةٍ يَقِلُّ عندها صَبْرَنا ورِضانا وثَبِّتْنا على ما تُحِبُّهُ مِنَّا، اللهم سَلِّمْنَا مِن شُرُورِ الدنيا وآفاتِها وفِتَنِها وزَخَارِفِها وكَذِبِها وخِدَاعِها، وارزقنا خيرَها وبركَتَها وهيِّئْنا للقائِك.

اللهم سلِّمنا مِن جميعِ المصائبِ والآفاتِ والعَاهاتِ والقَواطعِ والحُجُبِ عنك وخَلِّصْنا منها يا أرحم الرَّاحمين واجعلنا والحاضِرين ممن يُلازِمُ بَابَك أبدًا ويَتَّبِعُ محمَّدًا .

وإذا انْطَلَقْتَ في هذه الحياة فانْطَلِقْ انطلاقَ المؤمنِ الموقِنِ ولا تَهْتَزّ أو تَتَزعزعْ لِلحوادث التي تحصُل .

فـ (لا يَضِيقُ صَدْرُكْ) : لأنَّ صَدرَك يَسَعُ مِن المعْرِفَةِ بالله مالا تَسَعُهُ السَّماواتُ والأرضُ فكيفَ يَضِيقُ بِشَيءٍ مِن هذِهِ الحوادِثِ؟

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النمل: ٧٠]

وقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩] وقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يونس: ٦٥]

(لا يَضِيقُ صَدْرُكْ) : فأنتَ مؤمنٌ بالقويِّ، مُؤمنٌ بالغَنِيِّ، مُؤمنٌ بالسَّخِيِّ، مُؤمنٌ بالقَدِيرِ، مُؤمنٌ بالمُحيطِ بِكلِّ شيءٍ، مُؤمِنٌ بالفعَّالِ لما يُرِيدُ، فلا يَضِيقُ

صَدْرُكَ .

(فالحَادِثْ يَهُونْ) : لأنَّ كلَّ الحوادثِ والشَّدائِدِ والنَّوازِلِ مؤقَّتَةٌ بِمَواقِيتَ، ومحدَّدَةٌ بحُدُودٍ؛ مِن قِبلَ قَوِيٍّ قَدِيرٍ حَكِيمٍ عَظِيمٍ قَاهِرٍ، وما تَلْبَثُ هذه الحوادثُ أنْ تَهُونَ وتتلاشى وتَضْمَحِلَّ .

فكُنْ ثابتًا، راجِياً، واثِقاً، مُتوكِّلًا، مُعتَمِدًا عليه، مُسْتَنِدًا إليه، حَسَنَ الظَّنِ بِهِ.

ثِقْ بِمَولَاكَ في جميعِ الأُمُورِ ... واحْسبِ النَّاسَ كُلَّهُم في القُبُورِ

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾
[الفرقان: ٥٨]

قال النَّاظِمُ في قصيدَةٍ أخرى :

وإِذَا الحَوَادِثُ أظْلَمَتْ وَتَنَكَّرَتْ ... فَاسْكُنْ وَإِيَّاكَ التَّحَرُّكَ والحَذَرْ

إنَّ النَّوَائِبَ كالسَّحَائِبِ تَنْجَلِي ... في سُرْعَةٍ وَوُجُودُهَا يُضْحِي خَبَرْ

وإذا تَطُولُ إِقَامَةٌ مِن حَادِثٍ ... كَانَتْ مُبَشِّرَةً بِطُولِ المُنْتَظَرْ

فاصْبِر على المِحَنِ القَواصِدِ وانْتَظِرْ ... فَرَجًا تَدُولُ بِهِ دُوَلِ القَدَرْ

معركة الأحزاب وثبات المؤمنين فيها :

وإنَّ مِن أعْظَمِ ما وَقَعَ في حياةِ هذه الأمَّةِ مِن الحوادث حَادِثَةُ الأحزابِ، حيث تجمَّعَتْ جُمُوعٌ مِن أهلِ الكُفْرِ هِيَ مِن حيث العَدَدُ والعُدَّةُ والأسبابُ الظَّاهِرَةُ قادِرَةٌ على أنْ تَسْتَأصِلَ شَوْكَةَ المسلمين مِن المهاجرين والأنصارِ، إذ تجمَّعَ

عَشَرَةُ آلافِ مُقاتلٍ مِن المشركين، بينما كان عَدَدُ مَن بالمدينة مِن المهاجرين والأنصارِ لا يُجاوِزَ الثلاثَةَ آلافٍ، لكن ما ضَاقَ صَدرُ رَسُولِ الله، ولا ضَاقَتْ صُدورُ أصحابِهِ الصَّادقين في الإيمانِ والارتباطِ بهِ، لكن ضاقَتْ قُلوبُ المنافقين، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١١ – ١٤]

هذا حالُ المنافقين عندَ الحَوادِثِ، لا يَعرِفُونَ عَهْدًا ولا مِيثاقًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٥ – ١٧]

وهكذا في مُختَلَفِ حَوادثِ العَالَم، أنَّها تَضِيقُ قُلوبُ أهلِ النِّفاقِ وأهلِ ضَعْفِ الإيمانِ.

أما مَن صحَّ ارتباطهم بالأسمى فهُمْ تحتَ دائِرةِ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

وقد جَرَتْ معرَكَةُ الأحزابِ في وقتِ بردٍ حتى كانَ بعضُ الصَّحابَةِ لا يجِدُون ما يَتغَطُّون به مِن البردِ إلا مُرُوطَ نِسائِهم، وكانوا على قِلَّةٍ أيضًا في الطَّعامِ حتى ظَهَرَ أثرُ الجوعِ على وَجْهِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولَكِنَّهم كَانُوا ثابِتين.

جاء في الحديثِ أنَّ سيِّدَنا جَابِراً لما رَأى أثَرَ الجُوعِ على وَجْهِ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذَهَبَ إلى بيتِهِ وسَأل زَوْجَتَهُ : هَل عندكِ شيءٌ حتى ندعُوَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ؟ فقالت: ليس عندنا إلا صَاعًا من شَعِير، قال : فقُلتُ لها اطْحَنِيه، قال : وذَبَحْتُ عَنَاقًا كانتْ عِندنا، ثم انطلقْتُ إلى رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقلتُ له : يَا رَسُولَ اللهَّ إنَّ عِنْدَنَا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ وَعِنْدَنَا عَنَاقٌ أوْ شَاةٌ ذَبحْنَاهَا، وإنِّي صَنَعْتُ لَكَ وَلِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِكَ طَعَامًا، فَصَاحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِهِ: " قُومُوا فَقَدْ صَنَعَ جَابِرٌ سُورًا " ثمَّ قال : يَا جَابِرُ لَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ، وَلَا تَطْبُخُنَّ قِدْرَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ، قَالَ: فَانطَلَقْتُ أَمَامَ الْقَوْمِ فَأَتَيْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ لَا تَفْضَحْنِي الْيَوْمَ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: فَدَخَلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " ضَعُوا بُرْمَتَكُمْ " قَالَ: فَوَضَعُوا فِيهَا اللَّحْمَ، فَبَسَقَ[1] فِيهَا وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ: انْظُرُوا خَابِزَةً تَخْبِزُ لَكُمْ قَالَ: فَجَعَلَتِ الْخَابِزَةُ تَخْبِزُ ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ " ادْخُلُوا عَشَرَةً عَشَرَةً " قَالَ: فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُمْ فَيَأْكُلُونَ حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهِمْ وَإِنَّا لَنَقْدَحُ[2] فِي بُرْمَتِنَا[3] وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ، وَإِنَّ قِدْرَنَا لَتَغِطُّ[4] كَمَا هِيَ[5].

---

(١) بَسَقَ : بصق.

(٢) نقدح : نطبخ.

(٣) البُرمة : قِدْرٌ عَمِيقٌ مِن الحِجَارَةِ أو النُّحَاسِ.

(٤) تَغِطُّ أي: لِغَلَيَانِها صَوتٌ.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى عن جابر بن عبدالله، باب ما يستحب من إجابة من دعاه إلى طعام (٧/ ٤٤٧/ ١٤٥٩٧) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

(لا يَضِيقُ صَدْرُكَ فالحَادِثُ يَهُونْ) : لأنَّ شُؤونُ العَالَمِ وما فيه مُتَقَلِّبَةٌ ومُتَغَيِّرَةٌ، والنتائجُ حَسَنَةٌ لكلِّ صَادِقٍ مع الله، ممَن لم يرضَ أن يتلطَّخ بالدَّمِ الحَرام ولا بالذَّمِ لأحدٍ مِن أهلِ الإسلامِ، فهو في خيرٍ وحِرْزٍ وفَضْلٍ تَامٍّ، فإنْ حَمَلَ سَيْفَهُ لإعلاءِ كلمَةِ الله خَالصًا لوجْهِ الله - عندما تقومُ القَائِمَةُ ويتسنَّى له ذلك - على وجهِه فهو في حالٍ أَتَم وشأنٍ أَقْوَم، وسيموتُ الكلُّ، وسيربَحُ وينْجَحُ مَن صَدَقَ مع ربِّ الكُلِّ وإِلَهِ الكُلِّ ومَن إليه مَرجِعُ الكُلِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأحْسِنُوا اللَّجَاءَ إلى ربِّ كُلِّ شيءٍ، والقَادِرِ على كلِّ شيءٍ، ومَن بيدِهِ مَلَكُوتُ كلِّ شيءٍ.

أيُّها الأحبابُ والإخوانُ والأصحابُ والوُعاةُ والفاهمون للأقوالِ : إنَّ مَن مَعَهُ هذه القُوَّةَ العَظِيمَةَ مَا حَقُّهُ أنْ يَقْلَقَ مِن شَيءٍ، فمَن وَجَدَ اللهَ فأيَّ شَيءٍ فاتَه، ومَن فَاته اللهُ فأيَّ شيءٍ وَجَدَ.

وقد فَتَحَ لنا البابَ لنتوكَّلَ عليه، ونعتَمِدَ عليه، ونَسْتَنِدَ إليه، ونَصْدُقَ معه فيُرِينا العَجَائِبَ مِن فضْلِهِ: قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]

و قَالَ تَعَالَى لِسَيِّدِ المتوكِّلين : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٨]

فإذا كان اللهُ خالِقَ السَّماواتِ والأرضِ فبِأيِّ شَيءٍ تُخَوِّفُونَا بَعْدَهُ ؟

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]

قل لهم يا محمَّدُ : حسبي اللهُ، فقد اكْتَفَيْتُ بالكافي الوافي، واكْتَفَيتُ بِعَالِمِ الظاهِرِ والخافي، واكتفَيتُ بالقَوِيِّ الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٨-٤٠]

فماذا بعدَ ذلك : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٣٨-٤١]

فليْسَتِ المسألَةُ أفكارَ أو ألاعِيبَ بَشَرٍ أو جماعاتٍ أو أحزابٍ أو طَوائِفَ أو دُوَلٍ، بل وحيٌ مِن الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ.

فيَجِبُ مِن خِلالِ وُجهَتِكم إلى الله وحُضُورِكم هذِه المجالس .. إظهارُ سَنَنٍ مِن نُور عَظَمَةِ هذا الإله بأنْ تَصْدُقُوا مَعَهُ، وتَتَّكِلُوا عليه، وتَعْتَمِدُوا عليه، فتَتَّسِعَ صُدُورُكُم، ولا يضيقُ بكم صَدرٌ مِن أيِّ حادث، فعندَ الله الفرَجُ والمخرَجُ.

ولما حَاوَلَ كُفَّارُ قُرَيشٍ تخويفَ المسلمين، كانوا يقُولون لمن لَقِيَهُم مِن المسلمين : إنَّ قُرَيشًا قدْ جَمَعُوا لَكُم، فكانَ جوابُ الصَّحابَةِ: حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيل، فأنزلَ الله : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾

والنتيجة : ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥]

هكذا قابلُوا الحَوادِثَ فلم تُؤَثِّر فيهم المُجْرَيَاتُ التي تُؤَثِّرُ في نُفُوسِ النَّاسِ، لأنَّ نُفُوسَهم تَزَكَّتْ على يَدِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وفي كلِّ زمانٍ ينتَخِبُ اللهُ مَن يَشَاءُ، فتكونُ حوادِثُ العَالَمِ سَبَباً لِزيادَةِ إيمانِهِ وقُربِهِ، ثم ينقَلِبُ بفضلٍ مِن الله ونعمةٍ لا يَمْسَسْهُ سُوءٌ ويتَّبعُ رِضوانَ الله فينالُه الرِّضوانُ مِن الله .

وهَلْ هُناك شيءٌ أعظمُ مِن رِضْوانه؟

لا وَعِزَّتِهِ وجلالِهِ لا شيءَ أعظمُ مِن رضوانِهِ، ولا أحْسَنَ مِن رضوانِهِ، ولا ألذَّ ولا أطيبَ ولا أنعمَ ولا أجملَ ولا أكملَ ولا أتمَّ ولا أقومَ ولا أحسنَ ولا أزينَ مِن رضوانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى " أنَّهُ يُخاطِبُ أهلَ الجنَّةِ يومَ القِيامَةِ ويقولُ لهم : يا أهلَ الجنَّةِ! فيقولُون: لبَّيكَ ربَّنَا وسَعْدَيك! فيقولُ: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: ما لنَا لا نَرْضَى، وقد أعْطَيْتَنا ما لم تُعْطِ أحَدًا مِن خَلقِكَ؟ فيقول: ألا أعطيكم أفْضَلَ مِن ذلك؟ فيقولون: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ مِن ذلك! فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضوَاني، فلا أسْخَطُ عليكُم بعدَهُ أبدًا[1]".

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ التوبة: ٧٢

اللهم إنا نسألُكَ رِضَاكَ والجنَّةَ، ونَعُوذُ بِكَ مِن سَخَطِكَ والنَّار.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، باب كلامُ الرَّبِّ مع أهل الجنة (٩/ ١٥١/ ٧٥١٨) الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

يا الله رِضًا يا الله رِضًا والعفو عمَّا مضى

يا الله رِضًا يا الله رِضًا بالتوبة والقبول

إِذَنْ لا يَضِيقُ صَدْرُنَا بأيِّ حَادِثٍ لأنَّ ..

(اللهُ المقَدِّرُ والعَالَمُ شُؤُونٌ) : العالَمُ بما فيه شؤونٌ : قَالَ تَعَالَى ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] : أي شؤونٌ يُبدِيها ولا يَبتدِئُهَا، قد سَبقَتْ في علمِهِ وإرادتِهِ جَلَّجَلَالُهُ؛ فيقَرِّبُ هذا، ويُبْعِدُ هذا، ويُشقِي هذا، ويُسْعِدُ هذا، ويُضِلُّ هذا، ويَهدي هذا، ويُعَذِّبُ هذا، ويَرحَمُ هذا، ويُمْرِض هذا ويُعافي هذا ، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]

ولذا لما جَاء بعضُ المشككين يُنازِعُ بعضَ أهلِ الخير وصعد المنبر يسأل ويقول : ما معنى قول الله: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ يُرِيدُ تَشْكِيكَ مَن في المسجد مِن العَامَّةِ، وكان أَحَدُ الصَّالحين حَاضِرًا، فقال له : يا هذا .. أنت سائلٌ أم مجيبٌ؟ فقال : بل سائل، فقال إذا كنتَ أنت السَّائِلَ فانزل، فكيف يليقُ بسائِلٍ يطلع على المنبر، فنزَلَ وصَعَدَ هذا الصَّالح ثم قال له: تفضل اسأل، فقال هذا الرجل : ما معنى قول الله: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ ؟ فأجابه : شؤون يُبدِيها ولا يبتدئها، قد رتَّبها في الأزل، قال : ففي أي شأنٍ هو مِن شؤونه الآنَ ؟ قال له: يَرْفَعُ أقوامًا ويَخْفِضُ آخرين كما رَفَعَني إلى هذا المنبر وأنزَلَكَ مِنه، فسَكَتَ ولم يتكلَّم بِكَلِمَةٍ .

فالكلُّ تحتَ حُكمِهِ وقهرِهِ، وما خُلِقَ أحدٌ مِن الخَلْقِ بإِرَادَتِهِ حتى يتصرَّفَ



فِي هذا الكونِ بإرادَتِهِ.

مَن مِن الطُّغاةِ البُغاة المجرمين فِي الأرضِ اختارَ شَكْلَهُ أو لَونَهُ أو أُمَّهُ أو أباهُ أو اختارَ الأرضَ التي خُلِقَ فيها، أو الزَّمَنِ الذي وُلِدَ فيه؟

كلُّهُم تحتَ قَهْرِهِ وحُكْمِهِ لكنَّهم يُعانِدُونَ ويُكَابِرُون ويُغَالِطُون أنفُسَهم .

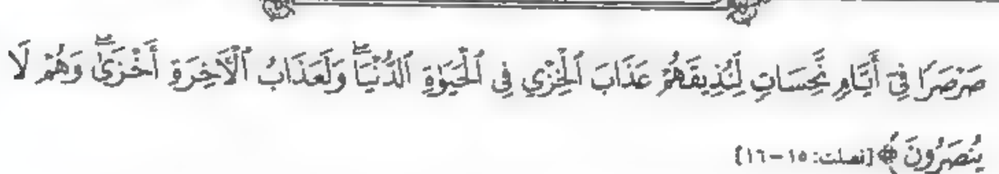
إِذَنْ فلا بُدَّ مِن اللجوءِ إلى المقدِّرِ، والسُّكونِ إلى أمرِهِ، والثِّقَةِ به، والاعتمادِ عليه، ولا نَضِيقُ مِن الحوادثِ، ونَعْلَمُ أنها مُؤَقَّتَةٌ بمواقيتَ، ومحدَّدَةٌ بحدودٍ وأنَّ عَاقِبَةَ الصَّابِرِ الرَّاضِي الصَّادِقِ مع الله خَيراً .

ولو أنَّ الذين عَلَّمونا وَخَلَّفُونا مِن بَعْدِهِم كانَ فِي قُلوبِهِم رُكُونٌ إلى غير الله وخَوفٌ مما سِواهُ، ما كان الحالُ هكذا، ولما عُقِدَتْ هذهِ المجالسُ قَطْعًا، ولانْتَهَوا كما انتهى غيرُهُمْ، لَكِنَّهُم كانوا إليه يَسْتَنِدُون، وعليه يَعْتَمِدُون، صَادِقِينَ مَعَهُ، فكانت النتائجُ أنَّ حقَّقَ الله لهم جميعَ ما يُرِيدُون مِن نَشْرِ الدِّينِ وتبليغِ الشَّرِيعَةِ والأجْرِ والثَّوابِ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ تَعَالَى : ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣١-٣٢]

وانظر إلى الآخَرِينَ مِمَّنْ قالوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] أينَ هُمُ الآنَ؟

هل تَرَى لَهُمْ مِن بَاقِية؟

قال عزَّ مِن قائلٍ : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا



صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦]

(اللهُ المقَدِّرُ والعَالَمُ شُؤُونٌ) : والعَالَـمُ : هو كلُّ مَا سِوى الله تعالى مِن العَرْشِ والكُرْسِيِّ والبيتِ المعمُورِ وحَمَلَةِ العَرْشِ والسَّماواتِ السَّبْعِ والأرضينَ السَّبْعِ والكواكبِ والنُّجومِ والإنسِ والجنِّ والملائِكَةِ والحيواناتِ والنباتاتِ والجماداتِ.

وكلُّ مَا سِوى الله فِعْلُهُ، إِذَنْ فَليسَ في الوُجُودِ إلا اللهُ وأفعالُهُ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]

الإنسان مخير أم مسير ؟

وقد يأتي عندَ البعضِ تَسَاؤُلٌ يَبْعَثُ الوَسْواسَ فيه فيقولُ : إذا كانَتِ الأشياءُ مقدَّرةً فلماذا نُعَاقَبُ على المعاصِي والذُّنُوبِ ؟

نقول : تُعاقَبُ على المعاصِي والذُّنوب لأنَّ المُقَدِّرَ في تقديرِهِ قَدَّرَ لك اختيارًا وأعْطَاك إيَّاه، لِتفعلَ هذا أو لا تفعلَ، فالاختيار مُقدَّرٌ، والعِقَابَ مُقدَّرٌ .

فمَنِ اختارَ الطَّاعة أثابَهُ عليها، ومَن اختارَ المعصِيَةَ عاقَبَهُ عليها، فأنتَ تختارُ بتقديرِهِ، وتُثَابُ أو تُعَاقَبُ بتقديرِهِ.

ولذا يُذْكَرُ أنَّ إبليسَ قال : ربي قَدَّرْتَ عليَّ الإِباءَ عَنِ السُّجُودِ لآدَمَ فَلِمَ عَاقَبْتَنِي عَليه؟

فقالَ له: متى عَلِمْتَ أنِّي قَدَّرْتُ عَليك ذَلك، قبلَ أنْ تَأبَى وتَمْتَنِعَ عَن

السُّجُودِ أم بعدَ أن أَبَيْتَ وامتَنَعْتَ ؟

فقال : بعدَ إن أَبَيْتُ وامْتَنَعْتُ .

قال : فبها أَخَذْتُكَ .

أعطيتُك الاختيارَ لِأنْ تَسْجُدَ أو لا تَسْجُدَ، فاخْتَرتَ عَدَمَ السُّجُودِ، وقدْ سَبَقَ في عِلمِي أنَّك تختارُ ذَلِكَ فطَرَدتُكَ، لأنَّك مُخاطبٌ بالاختيارِ الذي أعطيتُكَ إيّاه.

وقَدَ سألَ أحدُهُم سيِّدَنا عليَّ بنَ أبي طالبٍ عَن التخْيِير والتَّسْيِير عِندَ الإنسانِ ما هُو المُقَدَّرُ عَليه وما هو المُخَيَّرُ فِيه ؟ وكان الرَّجُلُ قَائماً، فقال له سَيِّدُنا علي : ارْفَعْ رِجْلَكَ .

فَرَفَعَ رِجْلَهُ، فقال له : اِرْفَعِ الثَّانِية، فقال : لا أستطيعُ، فقال : هَكذا التَّقْدِير والتخيير .

فالحقُّ لا يؤاخِذُ إلا عَلى الأمورِ التي جَعَلَ لنا فيها الاختيارَ، أمَّا ما لم يكُنْ للإنسانِ اختيارٌ فيه فلا يُعَاقَبُ عَليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] و قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]

ومع ذلك فهو إلهٌ، لو أرادَ مِن دُونِ أن يعطي الاختيارَ أنْ يُعَاقِبَ أحدًا أو يُعَذِّبَهُ فليسَ لأحدٍ حُجَّةٌ في ذلك ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]

لكن أعطانا الاختيار وأعطانا الإنذار وهذا مِن فَضْلِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]

إذن .. فـ (لا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرْ يَكُونْ) وأصلُ هَذا البيتِ حديثٌ جَاء بلفظ " لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ، مَا يُقَدَّرْ يَكُنْ، وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ"(1)

فنَظَمَ سَيِّدُنَا الحدَّادُ هَذا المعنى وجَعَلَهُ تخميسًا لهِذِهِ القَصِيدَةِ .

وفي اللغة إذا دَخَلَ اسْمُ الشَّرطِ على الفِعلِ الماضِي جَاز في الجوابِ أن يُجزَمَ أو أن يُرْفَعَ، وقد دَخَلَ اسْمُ الشَّرطِ على فِعلٍ مَاضٍ (مَا قُدِّرْ) فجازَ في الجوابِ أن يُجزَمَ وأن يُرْفَعَ ؛ وقَد رُفِعَ هُنا فقال : (يَكُونُ)

فَهَلْ تَتَعَلَّمُ لُزُومَ البَابِ أو لَا ؟ فإنَّ الحياةَ ستَنْقَضِي بِكَ، ولَنْ تَنْدَمَ على شيءٍ فيها مِثْلَ نَدَمِكَ على عَدَمِ لُزُوم بَابِ الإِلَهِ تعالى في عُلاه .

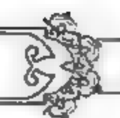
فأَحْسِنْ لُزُومَ البَاب وَسَيفْتَحُ البَوَّابُ .

و كل ما يُقْلِقُكُم مما يَخُصُّ الفَردَ منكم أو الأسرةَ أو الجماعةَ أو العالم فَأمّا ما كان منها مُتَعَلِّقًا بِخَشْيَتِكُم مِن سُوءِ وَصْفٍ، أو فِعْلٍ لا يَرضاه الله تعالى، فقَلَقُكُم مِن ذلك وخُوفُكُم مِنه وحُزنُكُم عليه هو عينُ العِلاجِ له، وهو سبيلُ التَّدَارُكِ والتَّلافي، وقد جَرَتْ سُنَّةُ الله أن يُعِينَ مَن أرادَ رِضَاهُ، وصَدَق في طَلَبِ قُربِهِ، فيكشفَ عنهم الغُمَمَ والظُّلَمَ، فكونوا جميعًا على صِدق التَّوبَةِ وحُسنُ الأَوْبَةِ والطَّلَبِ والرَّغبَةِ واللجاءِ والفرارِ إليه تُكْفَونَ شَرَّها.

وأمّا ماعَدا ذلك مِن جميع المشاكِلِ والنَّوازِلِ فإنَّهُ لا يدُومُ مِنها شيءٌ، ولكم

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، عن خالد بن رافع عن ابن مسعود، باب التوكل بالله والتسليم (٢/٤٠٨/١١٤) الناشر: مكتبة الرشد.



فِي الاحْتِسَابِ والصَّبرِ مِن الثوابِ ما لا يَدْخُلُ تحتَ حِسَابٍ، ولكم أيضًا مَراتبُ فِي الاقترابِ، وسَيُصادف كلٌ منكم غَالبًا في الحياةِ الدُّنيا قبلَ الوفاة فَرَجًا مِنها، وَرَفْعًا لها، ثم يُلاقي نتيجةً حَسَنَةً بعد مَوْتِهِ إذا ما قابَلها بما يُرْضِي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

رزقنا الله وإياكم حُسنَ الوُقُوفِ على بَابِهِ واللِّيَاذَ بِأَعْتَابِهِ، واتِّبَاعَ نَبِيِّهِ بالتَّخَلُّقِ بِأَخْلاقِهِ والتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ آمين .

فِكْرَكْ واخْتِيَارَكْ * دَعْهُمـــا وَرَاكْ والتَّـدْبِيرَ أَيْضَـا * واشْهَدْ مَن بَرَاكْ
مَـوْلاكَ المُهَـيْمِنْ * إِنَّـــهُ يَــرَاكْ فَوِّض لَهُ أُمُورَكْ * واحْسِنْ في الظُّنُونْ
لا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

(فِكْرَكْ واخْتِيَارَكْ دَعْهُما وَرَاكْ) أي : أنْزِلْهُما المنزلَةَ التي أنْزَلَهُما الله تعالى فيها؛ فاستعمِلْهُما واستَخْدِمْهُما بميزانِ ربِّك، واجعل النُّورَ شَرْعَ رَبِّكَ، واللجوءَ إلى ربِّك، والاعتمادَ على ربِّك، واستعمِلْهُما مُسَخَّرينِ مَخْلُوقَين ليس لهما مِن الأمرِ شيءٌ.

ففي عالم الحسِّ أنتَ تَسْتَعمِلُ عينَيكَ لتَنْظُرَ إلى الكأسِ وفيه الماء، فهَلْ نَظَرُكَ إلى الكأسِ وفيه الماء يُوصِلُ الكأسَ إليك؟

لا..

كذلك أنتَ تَسْتَعْمِلُ الفِكْرَ، لكن لا تَظُنُّ أنَّ الفِكرَ يستطيعُ أن يَعْرِفَ كُلَّ شيءٍ، أو يَسْتَطيعُ أن يعمَلَ لك أيَّ شيءٍ، هو فقط آلةٌ تستخدِمُها كما شَرَعَ خالِقُها، لكنَّ الاعتمادَ على الخالقِ والاستنادَ إليه.

إذَنْ فحَقِّقِ العبودِيَّةَ للرَّبِّ، واستعملِ الفِكْرَ كما تَسْتَعْمِلُ البَصَرَ.

وكما تَرَى أنَّ البَصَرَ آلةٌ للنَّظَرِ ليس بِجَالبِ نفعًا ولا بِدافِعِ ضُرًّا، فالفكر كذلك آلةٌ للاستبصارِ المعنوي ليس بجالبِ نفعًا ولا بِدَافعِ ضُرًّا، ولا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ ولا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ على وَجْهِ الحقيقةِ إلا اللهُ سُبْحانَهُ وتَعَالَى.

وكلُّ شيءٍ في الوجود لا يَمْلِكُ نفعًا ولا ضُرًّا إلا بأَمْرِ الله جَلَّجَلَالُهُ، فالماءُ مثلاً لا يستطيعُ أنْ يَخْلُقَ رَيًّا ولا عَطَشًا، وإنما يخلق اللهُ الرَّيَّ عِند تناوُلِهِ والعَطَشَ عند فُقْدَانِه .

ولما دَعَا سيِّدُنا الحسينُ بن عَلِيٍّ على المستهزِئِ الشَّامتِ الذي قالَ لَهُ في يَومْ مَقْتَلِهِ : إنَّ الماءَ عِندنا ولا مَاءَ لكم حتى تموتُوا ظَمَأً، قال : اللهم أَمِتْهُ عَطشًا، فَعَطِشَ الرَّجُلُ أبلغَ ما يكونُ مِن العَطَشِ، حتى كانَ يقولُ : اسقُوني مَاءً، فيُؤتَى بماءٍ، فيشربُ حتى يخرجَ الماءُ مِن فِيه، وهو يقول: اسقوني، قَتَلَني العَطَشُ، فلم يَزَلْ كذلك حتى مَاتَ(١) .

والطعامُ لا يخلُقُ شِبَعًا، وإنما يخلُقُ الجُوعَ والشِّبَعَ خَالِقُ الطَّعَامِ، وقد دعا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ للسيِّدةِ فاطمةَ بأن يُذْهِبَ اللهُ عنها أَلَمَ الجُوعِ، فصارت لا تَشْعُرُ بِأَلَمِ الجُوعِ أبدًا(٢).

و لَمَّا دعا رسولُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ لسيِّدِنا علي أن يقيَهُ الحرَّ والبردَ

---

(١) انظر كتاب مقاتل الطالبيين لـ علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني (١/ ١١٧) الناشر: دار المعرفة، بيروت .

(٢) جاء في المعجم الأوسط للطبراني (٤/ ٢١٠/ ٣٩٩٩) عن عمران بن حصين قال : إني لجالس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت فاطمة، فقامت بحذاء النبي صلى الله عليه وسلم، مقابلة، فقال: «ادني يا فاطمة»، فدنت دنوة، ثم قال: «ادني يا فاطمة»، فدنت دنوة، ثم قال: «ادني يا فاطمة» فدنت حتى قامت بين يديه، قال عمران: فرأيت صفرة قد ظهرت على وجهها، وذهب الدم، فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، ثم وضع كفه بين تراقيها، فرفع رأسه، فقال: «اللَّهُمَّ مُشْبِعَ الْجَوْعَةِ، وَقَاضِيَ الْحَاجَةِ، وَرَافِعَ الْوَضْعَةِ، لَا تُجِعْ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ» فرأيت صفرة الجوع قد ذهبت عن وجهها، وظهر الدم ثم سألتها بعد ذلك، فقالت: «ما جعت بعد ذلك يا عمران» كذلك عند أبي نعيم في دلائل النبوة .

صار لا يُفَرِّقُ بين صَيفٍ ولا شتاءٍ في إحساسِه به، فقد يُرى في أيَّامِ شدَّةِ الصَّيفِ والحرِّ لابسًا ثيابَ الصُّوفِ الغَلِيظة، وقد يُرى في بعضِ أيامِ شدَّةِ البردِ لابسًا ثياباً خَفيفةً، ولما سأله بعضُهم عَن سببِ ذلك، قال : ما شَعُرْتُ بذلك مِن يومِ خيبرَ عندما دَعَا رَسُولُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وقال : اللَّهُمَّ اكْفِهْ أَذَى الْحَرِّ وَالْبردِ، قال: فَمَا آذَانِي بَعْدُ حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ[1].

إِذَنْ فهذِهِ عَوارِضُ أبدَاها الله، لِيفتَتِنَ بها مَن يَفْتَتِنُ، وليس الفَعَّالُ إلا هو، ولا الخلَّاقُ إلا هو .

فيا عُبَّادَ الفِكْرِ تحرَّرُوا مِن عبادَةِ غيرِ مَن بيدِهِ الأمرُ .

لا تعبدوا عَقلًا، لا تعبدوا فِكرًا، لا تعبدوا نظريَّاتٍ، لا تعبدوا خِططًا :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣-٦]

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة، (١/ ١٣٩/ ٢٤٤) الناشر. دار طيبة – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.

اللهم اجعلنا مِن المتقين .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨]

خُلِقُوا حطبًا للنار .

أما الفريقُ الآخرُ فيقولُ اللهُ عنه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

[يونس: ٩-١٠] .

(فِكْرَكَ واخْتِيَارَكَ دَعْهُما وَرَاكَ) فاستعْمِلْهُما ولا يستعمِلاك، فإنَّ الله سَخَّرَهُما لك فَسَخِّرْهُما لأمْرِهِ، واجعلِ اختيارَكَ مَا شَرَعَ لَك، وفِكْرَكَ في كَيْفِيَّةِ تنفيذِ ما شَرَعَ لَكَ؛ لِتَعْلَمَ عظمَتَهُ فتَزْدَادَ إيمانًا ومَعْرِفَةً ويَقِينًا .

فإنْ قَالَ لَكَ : إنَّ هذا واجِبٌ وهذا مندوبٌ، فاجعل فِكْرَكَ كيف تُحسِنُ أداءَ الواجبِ وتُؤدِّي المندوبَ بما تستطيعُ.

وإن قال لك : إنَّ هذا حرامٌ وهذا مكروهٌ، فاجعلْ فِكْرَكَ كيف تَجْتَنِبُ هذا المحرَّمَ وتَبْتَعِدُ عَن المكروهِ .

ثم جَعَلَ لكَ مَسَاحَةً في المباحات، فمهما نويتَ فيها النيَّةَ الصَّالِحَةَ وأَخَذْتَ بآدابِ نَبِيِّهِ مما تحتاجُ إليه على المقاصِدِ الكُبرى أثابَكَ عليها .

هذا الاستعمالُ الصحيحُ للفِكْرِ كما أحبَّه واهِبُ الفِكْرِ الذي أعطاكَ إيّاه.

فَكِّرْ كيفَ تَكْتَسِبُ الحلالَ، وكيف تجتنِبُ الحرامَ؟ واعتمِدْ على الله يُوَفِّقْكَ ويُسَهِّلْ لَكَ، ثم فكِّرْ بعد ذلك فيما تَجْلبُ فيه خَيراً ونفعًا لِنَفْسِكَ أو لِغَيرِكَ، أو تدفَعُ به شرّاً عَن نَفْسِكَ أو عَن غيرِكَ لَكِنْ ببصيرةٍ وأدبٍ واتّزانٍ بميزانِ مَرضاةِ الرَّبِّ، لأنَّ أكثر مَن في الأرض لما شَغَلُوا عُقولَهم وأفكارَهم في شَهواتِ نُفوسِهم، وفي مخالفة أمرِ بارئهم.. فَسَدَتْ عقولُهم فصَارُوا مع ما يدَّعُون مِن الحِنْكَةِ والخِبرَةِ والتخطيط لا يعقلون تمامًا .

فلو أعطينا رَجُلًا يَدَّعِي قُوَّةً في العَقْلِ.. مَلِكًا ووزِيرًا نَاصِحًا وكلبًا وخنزيرًا وقلنا له إنَّ هذا الخنزيرَ سيكفِيكَ بعضَ القَاذورات التي يحبُّها ويأكلُها، والكلبَ لحراسَتِك ودَفْعِ الضُّرِّ عنك، لكن استقامَةَ الكلبِ والخنزيرِ تحتَ إِشَارَةِ هذا المَلِكِ وهذا الوزيرِ النَّاصِحِ، فقالَ للكلب: اعْمَلْ ما شِئْتَ، وللخنزيرِ اعْمَلْ ما شِئْتَ، ثم قال للمَلِكِ سَخِّرْ كلَّ مُلْكِكَ لِخِدْمَةِ الكَلْبِ والخنزيرِ، وقال للوزيرِ النَّاصِحِ استخدمْ مَا عِندكَ مِن حِيلةٍ ووسيلةٍ لتنفيذِ مُرادِ هذا الكلبِ والخنزيرِ، فهل هذا عاقلٌ وقد سَخَّرَ المَلِكَ والوَزيرَ لخدمة الكلبِ والخنزيرِ؟

فماذا لو قَالَ للمَلِكِ والوَزيرِ : اسْجُدا للكلبِ والخنزيرِ! هل عِندَ هذا ذَرَّةٌ مِن العَقْلِ؟

وكُلُّ إنسانٍ مَعَهُ قَلبٌ وعَقلٌ وغَضَبٌ وشهوةٌ؛ أربعةٌ كما في المثال؛ مَلِكٌ ووزيرٌ ناصحٌ وكلبٌ وخنزيرٌ .

فالذي سَجَدَ لِشَهْوَتِهِ ولِغَضَبِهِ الطَّبْعِيِّ في مخالَفَةِ الشَّرْعِ ما الفرقُ بينَهُ وبينَ

مَن يَسجُدُ للكَلبِ والخنزيرِ[1]؟

هو ليس بأحسنَ حَالًا ممن سجَدَ للكلْبِ والخنزير، فالكلبُ والخنزيرُ لا يدخلان النَّار وهذا يدخُلُها والعياذُ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَى، فأين العَقْلُ عِند هذا؟

(فِكْرَكْ واخْتِيَارَكْ دَعْهُما وَرَاكْ) : ولا تجْعلْ أمَامَك إلا الاعتمادَ على ربِّ الأنامِ، والائتمامَ بخيرِ إمَامٍ، في كلِّ وجْهَةٍ وحَرَكَةٍ وسُكُونٍ، فإنَّك لنْ تستطيعَ أن تكونَ بين يديه في حَالٍ أجملَ ولا أكملَ ولا أفضلَ مِن حَالِ اقتدائِكَ بحبيبِه وتَبَعِيَّةِ أَحَبِّ الخَلقِ إليه.

والذين انْطَوَوا في الحبيبِ شَأْنُهم عجيبٌ غريبٌ رهيبٌ، فحيَّا اللهُ أولئك القومَ مِن كلِّ بَرٍّ مُنِيبٍ وسَالِكٍ وأَدِيبٍ.

(فِكْرَكْ واخْتِيَارَكْ دَعْهُما وَرَاكْ) : واعلمْ أنَّ اختيارَ الله خيرٌ لك مِن اختيارِكَ الذي ينالُهُ القُبْحُ، وأنَّ تدبيرَهُ أجملُ وأفضلُ مِن تدبيرِكَ الذي يلحَقُهُ السُّوءُ.

وحُسْنُ تَدبيرِ الله، وجميلُ اختيارِهِ.. مُنَزَّهٌ عن كلِّ سُوءٍ وقُبْحٍ؛ فإذا أرادَ بِكَ الخيرَ جَلَّجَلَالُهُ أَحْسَنَ لك التَّدبيرَ، واختارَ لكَ الجميلَ.

---

(١) قال الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين : «وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ولو كُشِفَ الغطاء عنه وكُوشِفَ بحقيقة حاله ومُثِّلَ له حقيقة حاله كما يُمَثَّلُ للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرةً وراكعاً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره، فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته، أو رأى نفسه ماثلا بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه مدققاً بفكر في حيل الوصول إلى طاعته» باب : بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل (٣/ ١١)

فِكْرَكَ واختيارك دعْهما وراك ..

(والتَّدْبِيرَ أيضًا) : إِذَنْ فنَحتاجُ إلى اسْتِعمالِ الفكْرِ بالميزانِ الشَّرْعِي، وكذلك التَّدبير الشَّرعِيِّ في كيفية الوُصُولِ إلى أداءِ الواجبِ؟ وكيفيَّةِ القيامِ بالسُّنَّةِ والإكثارِ مِن الطَّاعاتِ؟ وكيفيَّةِ تَرْكِ المُحَرَّمِ والابتِعَادِ عَنْهُ، وكَيْفَيَّةِ تَرْكِ المكرُوه؟

تدبيرُكَ لهذا أمرٌ شرعيٌّ، لكن مَعَ هذا التدبير في شُؤُونِ المصالِحِ العَامَّةِ ودَفْعِ المضار اسْتَعملْ فِكْرَكَ على أنَّه آلةٌ مخلوقةٌ واعْتَمِدْ على الخَالِقِ.

أما فيما يتعلَّقُ بالاعتمادِ والاستنادِ على الفِكْرِ والاختيارِ والتَّدبير فاجْعَلْهُ وراءَك، لأنك قد تختارُ شيئًا وفيه هلاكُكَ مِن حيثُ لا تَشْعُرُ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال عزَّ مِن قائلٍ : ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩]

الهجرة درس في الاعتماد على الله مع حسن التدبير:

ففي الهجرة مَعَ أنَّ رَسُولَ الله قامَ بالأسبابِ كُلِّها كما أمَرَهُ اللهُ مِن خُروجِهِ سِرًّا بغيرِ الطريقِ المُعتَادِ ومُكُوثِهِ وَسَطَ الغارِ، وتوكيلِ مَن يأتي لهم بالطَّعَامِ والأخبارِ، وكانَ اللهُ قَادراً على أن يَسْرِيَ به إلى المدينة في لحظةٍ كما أَسْرَى به إلى بيتِ المقدسِ، لكن ليكون قُدوةً لمن يأتي مِن بَعدِهِ في الصَّبرِ والتَّحَمُّلِ والعُبودِيَّةِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومَعَ أنَّه قامَ بالأسبابِ كُلِّها كما أمَرَهُ اللهُ إلا أنَّ المشركين وَصَلُوا إلى فَمِ الغَار فانتهتْ كُلُّ تِلكَ الخِطَطِ، لِيقُولَ الله له: دَبِّرْ ذَلِكَ امتثالاً لِأَمْرِي،

وسأريك أنّي أنا الذي أحميكَ وليسَ تَدْبيرَكَ.

ولأنَّ الحبيبَ يعلَمُ مَن الذي أمره بذلك كان مُطْمَئِنَّ البَالِ، حتى أنَّ سيدَنا أبابكرٍ لما رأى القومَ على بابِ الغَارِ فَزِعَ، وقال: يا رسولَ الله إن أَهْلكْ فإنما أنا ابن أبي قُحافة، لكن إن تَهْلكْ أنت تهلكِ الأمَّةُ مِن بعدِك، فقال رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «يا أبابكرٍ ما ظَنُّكَ باثنين الله ثالثهما»[1]؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾

وبعد أن انْتَهتِ الثَّلاثةُ الأيَّامُ خَرجَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مِن الغارِ، وتنقَّلَ مِن مكانٍ إلى مكان مُتَعرِّضًا للجوعِ والعطشِ والشَّمْسِ حتى وصلَ المدينة بعد أربعةَ عشرَ ليلةً، فاستقبلوه بطلعَ البدرُ علينا، ولا يزالُ بدرُهُ طَالعًا ونورُهُ ساطعًا، ولم يَزَلْ لمجامِعِ الخيرِ جَامعًا صلواتُ الله وسلامُه عليه.

(واشْهَدْ مَن بَرَاكْ): إِشْهدْ مَن خَلَقَكَ وأنشأكَ وأوجَدَكَ مِن العَدَمِ، وخَلَقَ كلَّ هذه الكائناتِ مِن حولِك، وكُن مُستَحْضِرًا عَظمَتَه، وأن تدبيرَهُ أحْسَنُ مِن تدبيرِكَ، ولا تغفلْ عنه، ولا تَتحَجبْ عنه، ولا تَسترْ نفسَك عنه، أمَّا هُو فلا يستطيعُ شيءٌ أن يَسْتُرَهُ، ولا أنْ يَحْجُبَهُ.

وهلْ مَعَ هؤلاء المكلَّفِين مِن حجابٍ إلا أنفسهم، فأنواعُ الحِجَابِ هُم، فإذا أنهى العَبْدُ كُلَّ وَهْمِ اسْتِقْلالِ وُجودٍ لَهُ، واستقلالِ فِعْلٍ لَهُ.. خَرَجَ عن نفسِهِ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٤/ ١٨٥٤/ ١) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.



وتَلاشَتِ الحُجُبُ كُلُّهَا.

قال القائل:

حجابُكَ مِنكَ وما تَشْعُرُ   وداؤُكَ فِيكَ وما تُبْصِرُ

وتَحسِبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ   وفيك انطوى العَالمُ الأكبرُ

(واشْهَدْ مَن بَرَاكْ) : اشهدْ مَن خلقَك فصوَّرك فعدَّلك في أي صورةٍ ما شاء ركَّبك، قَالَ تَعَالَى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]

(مَوْلاكَ المُهَيْمِنْ) : المتولِّي لأمورِكَ.

فإن قَبِلْتَ دَعْوتَهُ وأجبْتَ نِداءَهُ ونفَّذْتَ أمرَه كان مُتَوَلِّيَكَ بِرَأفتِهِ ورَحمتِهِ وعَطْفِهِ وإِحْسَانِهِ وإِثابتِهِ وحُسْنِ جزائِهِ وواسِعِ عَطائِهِ وعَظِيمِ آلائِهِ، بما لا عَينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ.

وإن أعْرَضتَ وأدْبَرْتَ وتَولَّيْتَ وعَانَدْتَ كان مَولاكَ القاهِرَ لك، الذي يُرسِلُ إليك سَخطَهُ ونقمتَهُ وعَذابَهُ وطَردَهُ وبُعْدَهُ ولا طاقَةَ لَكَ بِذَلِكَ.

(مَوْلاكَ المُهَيْمِنْ) : على كلِّ شيء، فكلُّ شيءٍ تحت هيمنَتِهِ بلا استثناء، وكلُّ شيء صُنْعُهُ، وخَلْقُهُ، ومُلْكُهُ، وتحتَ قُدْرتِهِ يَتَصَرَّفُ فيه كما يشاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(مَوْلاكَ المُهَيْمِنْ) : على الأجسامِ والأرواحِ والخَواطرِ والنَّظراتِ والمقاصِدِ والحركاتِ والسَّكناتِ والنَّعيمِ والعَذابِ والجَنَّةِ والنَّارِ والملائكةِ والإنسِ والجِنِّ



والجمادات والحيوانات والنباتات والبراري والبحار والهواء .

والهيمنةُ بهذا المعنى ليستْ لغيرِه أصْلاً، ومهما تَهيمَنَ مخلوقٌ على مخلوقٍ فبحدودٍ، أما الهيمنةُ المطْلَقَةُ فلَهُ وَحْدَهُ عَزَّوَجَلَّ.

(إنَّهُ يَرَاكَ) :قَالَ تَعَالَى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقَالَ تَعَالَى : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧]

فهو أعْلَمُ بِكَ وبأحوالِكَ وبما يُصْلِحُكَ.

ومما جاءَ في بَعْضِ كُتُبِ الله المنزَلَةِ : (يا ابنْ آدمَ أطعني فيما أمَرْتُكَ، ولا تُعَلِّمْنِي بما يُصْلِحُكَ، إني عالمٌ بِخَلقي، وأنا أعْلَمُ بحاجَتِك التي ترفَعُكَ مِن نفسِكَ(١))

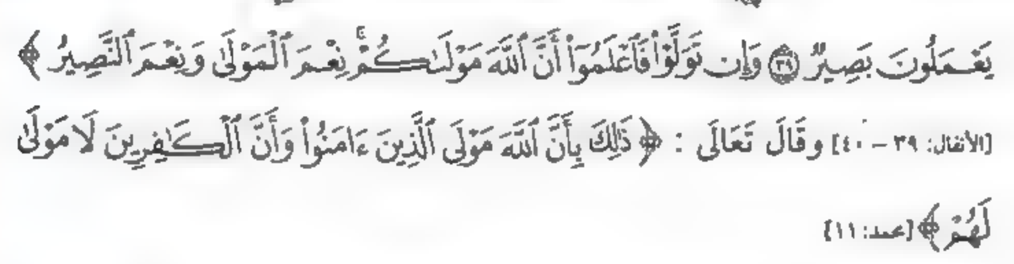
وهو أعْلَمُ بأعدائِك، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥]

فاعتمدْ عليه وسَيُرِيكَ فيهم قُدْرَتَهُ، وكم أرَى بِقُدْرَتِهِ مِن عَدُوٍّ رَدَّهُ إلى خادمٍ، قَالَ تَعَالَى : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]

واستندوا إليه فهو نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النَّصِير، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٣١٣) الناشر: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



﴿يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩ - ٤٠] وقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]

ومَن تَوَلَّى غيرَهُ فهو المسكين المغبُون، ومَن اعتمدَ على دَولةٍ أو جيشٍ مِن دُونِ الله فمَثَلُهُ كما قال الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]

فيا نعم المولى والنصير تَوَلَّنا وانصرْنا على القومِ الكافرين، ولا تَكِلْنا إلى أنفُسِنا ولا إلى أحَدٍ مِن خَلْقِكَ طرفةَ عينٍ.

(إِنَّهُ يَرَاكَ): قال سيِّدُنا موسى وهارون عَن فرعون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥ - ٤٦]

وما دامَ اللهُ يَراكَ ويَسْمَعُكَ ويَطَّلِعُ عليك وبِيَدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ فـ..

(فَوِّضْ لَهُ أُمُورَكَ): ارْجِعْ أمورَكَ كلَّها إليه؛ فيما يتعلقُ بنفسِكَ وأهلِكَ وأسْرتِكَ ودِينِكَ ودُنياك وبَرْزَخِكَ وآخِرَتِكَ وحَياتِكَ ومماتِكَ وحِسِّكَ ومَعناك وظاهِرِكَ وباطنِكَ، وآثارِكَ مِن بعدِكَ، معتمدًا عليه، مستندًا إليه، مُوقنًا واثقًا به.

وما أَحْسَنَ التفويضَ إلى قَويٍّ عَليمٍ قَدِيرٍ بيدِهِ مَلكُوتُ كلِّ شَيءٍ، ولكنْ إنما يُسْتَبْعَثُ ذلك بِحُسْنِ الاستِشْعَارِ لِعَظَمَتِهِ وجَلالِهِ وكِبريائِهِ وقُدرتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّ جميعَ الأمورِ بيدِهِ، وإليه يَرْجِعُ الأمرُ كُلُّه، وأنَّه يراه، ومُطَّلعٌ على ظاهرِهِ وباطنِهِ، وأنَّهُ أعلمُ بمصالِحِهِ وخيراتِهِ حتى يتمكَّنَ ذلك في القلبِ

والضمير فيعتمدَ الاعتمادَ الصَّادِقَ القويَّ على ربِّ العِباد جَلَّجَلَالُهُ.

وهذه أحوالٌ شريفةٌ موطِنُها القُلوبُ، وإذا سَكَنَتْ فيها كانتْ لها النتائجُ العجيبةُ الظريفةُ الرَّفيعةُ المنيفةُ مِن تأييدِ الله ونُصرتِهِ وتسديدِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]

وقَدْ حَكَى اللهُ لَنَا قِصَّةَ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِن قَومِ فرعونَ الذي دَعَا قومه إلى الله، فلم يَسْتَجِيبُوا له فقال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]

فما النتيجة ؟

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]

وقالَ سيِّدُنا لوطٌ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود]، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «رَحِمَ اللهُ أخي لُوطاً لَقَدْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»[1].

ولهذا يقول سيِّدُنا جعفرُ الصَّادِقُ: عَجِبْتُ ممن خَافَ مَكْرَ الخلقِ بِهِ كيفَ يَغْفَلُ عن قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ والله يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾

قال الإمام أبوبكر العدني:

إن في التسليمِ راحةً عَاجِلَةْ ومِن التفويضِ فَيضَانُ المُنى

(١) ذكره الطبري في تفسيره عن قتادة (١٥/ ٤١٩/ ١٨٣٩٦) الناشر: مؤسسة الرسالة ط: ١

فَفَوِّضْ أمورَكَ إليه و ..

(واحْسِنْ فِي الظُّنُونْ) : أي : احْسِنِ الظنَّ بالله؛ فتَظُنُّ بِهِ أنْ يَعفُوَ وأنْ يصفَحَ وأنْ يغفِرَ وأنْ يتكرَّمَ وأنْ يجودَ، وأنْ يُحسِنَ، وأنْ يتحمَّلَ الابتلاءاتِ والامتحاناتِ والاختباراتِ والتَّبِعاتِ.

وعَلامَةُ صِدْقِ حُسْنِ الظَّنِ حُسْنُ العَمَلِ، فمَن حَسُنَ ظَنُّهُ بِكَ هل يتصدَّى لأذاكَ أو لِضُرِّكَ؟

مَن حَسُنَ ظنُّه بِكَ تعرَّضَ لِرأفَتِك ورَحمَتِكَ، ورَجَعَ إليك، واعترَفَ لك، وأجَلَّكَ، وأكْرَمَكَ.

فكذلك مَن أحسَنَ الظَّنَ بالله رَجَعَ إلى الله وأجَلَّهُ وعَظَّمَهُ ورجَا ما عِنْدَهُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي : " أنا عندَ ظِنِّ عبدِي بي، فليظنَّ بي ما شَاء "[1]

فاصْدُقْ في أيِّ ظَنٍّ خيرًا كانَ أو شرًّا وخُذْ مُقابِلَهُ .

يقول الله عَن الكافرين: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣]

قال الإمام الحداد عليه رحمة الله :

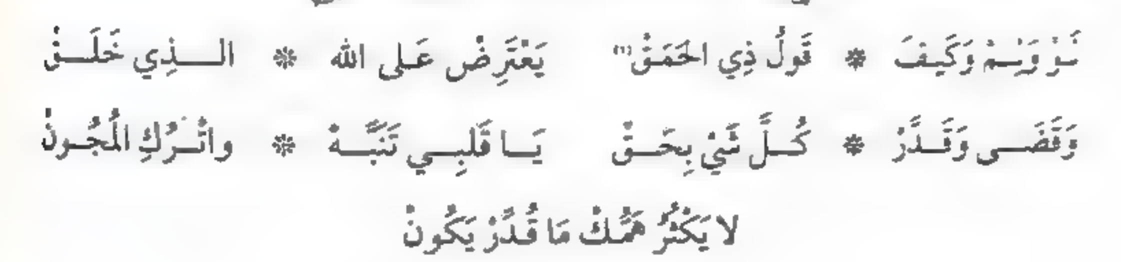
وَلِحُسْـنِ الظَّـنِّ ٱلَازِمْ   فَهْـوَ خِـلِّي وَحَلِيفِـي

وَأَنِيـسِي وجَلِيـسِي   طُـولَ لَـيْلِي وَنَهَـارِي

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن واثلة بن الأسقع، باب ذكر الأخبار فيما يجب على المرء (٢/ ٤٠٢/ ٦٣٤) الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت

رَزَقَنَا اللهُ الاعتمادَ عليه، والاستنادَ إليه، وتسخيرَ الفِكْرِ والتَّدبيرِ فيما يُرضِيه كما يُرضِيه في عُبُودِيَّةٍ له، وسَلامَةٍ مِن الاتِّكالِ على أنفسِنا أو على أحدٍ مِن خلقِهِ طرفَةَ عينٍ .

اللهم لاتكلنا إلى أنفُسِنا ولا إلى أحَدٍ مِن خَلْقِكَ طَرْفَةَ عَينٍ ولا أَقَلَّ مِن ذلك ولا أكثرَ، يا حيُّ يا قَيُّومُ برحمتك نستغيثُ ومِن عذابِكَ نستجير أَصْلِحْ لَنَا شأننا بما أَصْلَحْتَ به شُؤُون الصَّالحين يا أرحم الراحمين .



لَوْ وَلِمْ وَكَيفَ * قَولُ ذِي الحَمَقْ[1] يَعْتَرِضْ عَلى الله * الـذي خَلَقْ

وَقَضَى وَقَدَّرْ * كُلَّ شَيْ بِحَقْ يَا قَلْبِي تَنَبَّهْ * واتْرُكِ الْمُجُونْ

لا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

(لَوْ وَلِمْ وَكَيفَ قَولُ ذِي الحَمَقْ) : ينبِّهُنا الشيخُ عليه رحمةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى وجوبِ التَّحَرِّي فِي الألفاظِ وأنْ لا يُنْطَقَ بها إلا على الوجهِ الذي يَلِيقُ بالعَبدِ مع ربِّه الخَلَّاقِ جَلَّ جَلَالُهُ وتعَالى في عُلاه، فلا نُرسِلُ الألفاظَ بلا بصيرةٍ ولا بيِّنَةٍ.

ونبَّه على أنَّ التعبيرَ عَن الجَزَعِ وعَن الاعتراضِ وعن التَّعَجُّبِ في أن تمشِيَ الأمورُ على غيرِ مُرَادِ العَبدِ وما يهوى، بـ (لَوْ ولِـمْ وَكَيفَ) مَنْهِيٌّ عنه إذا جَاءَ على هذا الوجه، ويَجِبُ أن يَتنزَّهَ المؤمنُ عنه في حالِهِ مع ربِّه، فإنه دليلٌ على الحُمْقِ والجهل.

فمَنْ أرادَ أن يجرِيَ في المملَكَةِ شيءٌ على مُرادِهِ لا على مُرادِ الله فما ذَاكَ إلا أحمقٌ جَاهلٌ.

والأحمقُ هنا مُلتَحِقٌ بالعَاجِزِ الذي يُتْبِعُ نفسَه هَواها ويتمنَّى على الله الأماني كما في حَدِيثٍ : «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[2] فَمِن جُمْلَةِ إتْبَاعِ النَّفْسِ الهَوى أنْ يَعْتَرِضَ فيما لا

(١) الأحمق هو الأبله البليد الذي لا يدرك حقيقة الأشياء.

(٢) أخرجه أبو داوود في مسنده عن شداد بن أوس (٢/ ٤٤٥/ ١٢١٨) الناشر: دار هجر – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

دَخْلَ له فيه، وما كان مِن فِعْلِ الحقِّ جَلَّجَلَالُهُ.

ولذلك كان يقولُ بعضُ العارفين : بَرَدَ جأشي على ما شَاءَ اللهُ كانَ وما لم يَشَأ لم يَكُنْ.

وما دَامَ الأمْرُ كذلك فما هُناك داعٍ لِقَلَقٍ، ولا طريقةٌ للتَّحَكُّمِ على مَن خَلَق، فإنَّ مُرادَ الله هو الذي يَكُونُ لا مُرادَ المخلوقِ، ولذا كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُ أهْلَ بيتِهِ وأمَّهاتِ المؤمنين في ما يجري لهم خِلالَ اليومِ والليلة مع خدَّامِهم ومَن يعمل مَعَهُم إذا جَرَى شيءٌ على غيرِ ما يُرِيدُون وعلى غير ما يحبُّونَ أن يقولوا : قدَّرَ اللهُ وما شَاءَ فَعَل، فإذا عاتَبُوا أحَداً مِن الخُدَّامِ قال لهم : قولُوا : قدَّرَ اللهُ وما شاءَ فَعَلَ.

وقال خادِمُه سيِّدُنا أنسُ بن مَالِكٍ «لقد خَدَمتُ رسولَ الله عشرَ سنين، فما قال لشيءٍ صَنَعْتُهُ: لِـمَ صَنَعْتَهُ، ولا لشيءٍ تَرَكْتُهُ لِـمَ تَرَكْتَهُ»[1].

وَكثيرٌ مِن الذين قَصُرَ فَهْمُهُم ومَعْرِفَتُهم وأَدَبُهم لا تَمُرُّ عليه عَشْرُ سَاعَاتٍ إلا و(لَـوْ ولِـمَ وكيفَ) تتردَّدُ على لِسَانِه أو قلبِهِ كَثِيراً .

لِـمَ تقول : لِـمَ؟ أأنتَ مَلِكُ المملكةِ؟

دَعْ مَلِكَ المملكةِ يدبِّرُها كما يشاءُ جَلَّجَلَالُهُ وتَعَالى في علاه.

جاء في بعضِ الآثار : (عَبدِي أنتَ تُرِيدُ وأنا أُرِيدُ، ولا يَكُونُ إلا مَا أُرِيدُ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك، باب ما جاء في خلق النبي صلى الله عليه وسلم (٤/ ٣٦٨/ ٢٠١٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر

فإنْ سَلَّمْتَ لي فيما أُريدُ أعطيتُكَ ما تُرِيدُ، وإن نَازعتني فيما أُرِيدُ أتعبْتُك فيما تُرِيدُ، ثم لا يكونُ إلا مَا أُرِيدُ.)

اللهم ارزقنا حُسْنَ الأدَبِ والتَّسْلِيمِ .

وكل هَذا مُرتَبِطٌ بالميزانِ الحكيمِ، وهو أنَّ ما خُوطِبْتَ به، ووُكِلَ إليك وأُمِرْتَ به ودَخَلَ تحتَ ما أتاكَ اللهُ مِن القُدرَةِ والاستطاعَةِ فلا عُذرَ لك في التقصيرِ فيه ولا الاحتجاجِ بالقضاءِ والقَدَرِ، ومَا خَرَجَ عن قبضَةِ يَدِك وعن قدرتِك واختيارِك فلا مَعنًى لأنْ تَعْترِضَ فيه على مَن قدَّم وأخَّر، بل قُلْ : قدَّرَ اللهُ وما شَاءَ فعَل .

فقُمْ بواجِبِكَ وسلِّم لأمْرِ الله .

وقد كان بعضُ عَوامِ المؤمنين المنوَّرين الموفَّقِين يَسْتَحضِرُ إرادَةَ المريد جَلَّجَلَالُهُ في الأفعَالِ، فكلَّما رأى فِعْلَ أحدٍ مِن الخلق - فإن كان مما يُحِبُّ ويَهوى فلا ينسى المنَّةَ للأصْلِ وهو الله، فهو المحسِنُ الحقيقي، لكن أجرَاهُ على يدِ هذا العبدِ، وإن كانَ مما يُسِيئُهُ ولا يُحِبُّهُ فلا ينسى أنَّ الأصلَ اختبارٌ مِن الله لَهُ، وهذا العبدُ مجرَّدُ أدَاةٍ فقط - فكانوا يرددون دائمًا عِبارَةَ (مَا هُو مِنكَ) : أي ما أجراهُ اللهُ على يديك مِن الخيرِ والمعروفِ كنت أنتَ السببَ فيه لكن حقيقةَ العَطَاءِ مِن الله، وما سَلَّطَك به علينا بكلامٍ أو أذىً أو سُوءِ معاملةٍ فإنما هو مِن الله ليختبِرَنا ويؤدِّبَنا، وليس باستقلالِكَ.

هذا حَالُ عَوامِهم .

وكثيرٌ ممن يَرى نفسَه عَالِـمًا لا يَصِلُ إلى درجتِهِم في الأدبِ مع الله، فهم أقربُ وهم الخَوَاصُّ.

كما سَمِعتُم قولَ المُعطِي الصَّالح للفقيرِ الصَّالِح : خُذْ لا لَكَ؛ أي أني أعطيتك هذا مِن أجلِ الله وليس مِن أجلِكَ، فَرَدَّ الفقيرُ الصَّالحُ عليه : هاتِ لا منك؛ أي: أجرَاه اللهُ على يَدَيكَ والمعطي هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذا نسمَعُ العَوام يَقُولُون على ما يَكُونُ بينَهم مِن الإحْسَانِ : (يَا عبدي اعطِ عبدي) أي أنَّ الله هو المعطي حقيقةً، لكن يجري هذا العَطاءَ على يَدِ هذا وعلى يَدِ هذا فيكونون أسبابًا فَقَط.

أمَّا وُرُودُ (لَوْ ولِـمْ وكَيْفَ) على سبيلِ الاعتبارِ و الادِّكارِ أو لعتابٍ صحيحٍ فليس هذا مقصودُ الإمَامِ الحدَّادِ، ففي كتابِ الله وفي سُنَّةِ رسوله وفي كلامِ الصالحين كثيرٌ مِن هذا، لكن المقصودَ في ذلك وُرُودُها على سبيلِ الاعتراضِ والجَزَعِ و التَّبَرُّمِ، وعَلى سبيل استنكارِ أن يجريَ أمرٌ على غيرِ مُرادِ الإنسان، فإطلاقُ هذه الثلاثِ الكلماتِ في مُقَابلَةِ الحوادثِ والتَّدبيرِ الربَّاني حُمْقٌ وغَبَاءٌ وسَفَهٌ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : ([إن هَذا الخيرَ خَزائنُ، ولتلك الخزائِنِ مفاتيحُ، فطوبى لعبدٍ جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، وويلٌ لعبد جعله الله مِغلاقًا للخير مِفتاحًا للشَّرِّ[1]]، [وويلٌ ثمَّ ويلٌ لمن قالَ : لِـمَ وكيفَ[2]])

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن سهل بن سعد، باب ثواب معلِّم الناس الخير (١/ ١٦١/ ٢٣٨) دار الرسالة العالمية

(٢) كذا نقله صاحب كتاب قوت القلوب، قال العراقي في كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٥/ ٢٣٦٩/ ٣٧٧٦) رواه ابن شاهين في شرح السنة من حديث أبي أمامة بسند ضعيف اهـ ونص الحديث يقول الله في الحديث القدسي: (خلقت الخيرَ والشَّرَّ فطوبى لمن خلقته للخيرِ وأجريتُ الخيرَ على يديه، وويل لمن خلقته للشَّرِّ وأجريتُ الشَّرَّ على يديه، وويلٌ ثم ويلٌ لمن قال لِمَ وكيف).

وللإمامِ الحدَّادِ في شؤونِ مُقابلَة الحوادثِ وتَركِ الاعتراضِ على الله عَددٌ مِن الأبيات مِنْها :

يا صَابرًا ابشرْ وبَشِّرْ مِن صَبَرْ ... بالنَّصْرِ والفَرَجِ القريبِ وبالظَّفَرْ

نالَ الصَّبُورُ بصبرِهِ مَا يرتجي ... وَصَفَتْ لهُ الأوقاتُ مِن بَعْدِ الكَدَرْ

فاصبرْ على المِحَنِ القَواصِدِ وانتظرْ ... فَرَجًا تَدُولُ بهِ دُوَلُ القَدَرْ

وإذا الحَوَادِثُ أَظْلَمَتْ وتَنَكَّرَتْ ... فاسْكُنْ وإيَّاكَ التَّحَرُّكَ والحَذَرْ

إنَّ النَوائِبَ كالسَّحَائِبِ تَنْجلي ... في سُرعةٍ ووجُودُها يُضْحِي خَبَرْ

وإذا تَطُولُ إقامةٌ مِن حادثٍ ... كانتْ مُبَشِّرَةً بِطُولِ المنتظَرْ[1]

واعلمْ بأنَّ الكونَ مطبوعٌ على التَّـ ... ـغيِيرِ والتَّكْدِيرِ فامْعِنْ في النَّظَرْ

واغنمْ زمَانَك راحةً وتَرَوُّحًا ... وَدَعِ الهُمومَ فإنَّها محضُ الضررْ

وادخلْ ميادِينَ التوكُّلِ والرِّضَا ... واشكرْ عَلى ما سَاءَ مِن حالٍ وسَرّْ

واقتدْ بتاجِ الأصفيا عَلَمِ الهُدى ... زَينِ الوُجُودِ محمَّدٍ خيرِ البشر

فتأمَّلْ سِيرَ الأنبياءِ والأصفياءِ والأولياءِ وسِيرَ مُلوكِ الأرضِ وحُكَّامِها كلِّهم تجِدُ هذا الكون مطبوعٌ على التغيير والتكدير .

وقَدْ كابَدَ الأنبياءُ والأولياءُ والأقطابُ والعارفونَ المِحَنَ والشدائِدَ، وأنتَ لا تريدُ مكابَدَةَ شيءٍ ؟

(١) أي أن بعدها خيراً كثيرا .



يقول:

وكَـمْ محنَـةٍ كابـدْتُها وبَلِيَّـةٍ إلى أن أتانَـا الله بـالفَتْحِ والنَّصْـرِ
صَبَرْتُ لها حتى انْقَضَى وَقْتُها الذي بِـهِ وُقِّتَتْ في سَابِقِ العِلْـمِ والـذِّكْرِ
ولـو أنَّنِي بادَرْتُهـا قبـلَ تَنْقَضِـي بما تَقْتَضِيه النَّفْسُ في حَالَةِ العُسْرِ
مِن الجَزَعِ المذمومِ والغَمِّ والأسَى لكنتُ قد استجْلَبْتُ ضُرًّا إلى ضُرِّي
وما جَزَعُ الإنسانِ في حَالَةِ البَلاء سِوى تعبٍ في الحالِ يُذْهِبُ بالأجْرِ
إذا مَـا ابـتلاكَ اللهُ فالصَّـبْرُ حَقُّـه عَليكَ وإنْ أولاكَ فـالحقُّ في الشُّكْرِ
فـلا بُـدَّ للإنسـانِ طُـولَ حياتِـهِ ومـا دامَ فِيهـا مِـن مُلازَمَـةِ الصَّـبرِ
فطـوبى لعبـدٍ قـد تجـافَى نَعِيمَهـا وآثَـرَ دارًا خيرهـا أبـدًا يجـرِي
هي الجَنَّةُ الخُلْدُ التي طابَ نُزْلُها لِقَومٍ أطاعُوا الله في السِّرِّ والجَهْرِ
رجـالٍ كـرامٍ عَظَّمُـوا حـقَّ ربِّهِـم وقامُوا به في حَالة العُسـرِ واليُسْـرِ
هُـداةِ الـوَرى طُـوبى لعبـدٍ رَآهُـمُ وجَالَسَـهُم لـو مَـرَّةً مِنـهُ في العُمْـرِ

كتبَ أحدُهم إلى أخيه في مصيبةٍ نالتْهُ يقول له : اعْلَمْ يا أخي أنَّك إنْ صَبَرْتَ نَفَذَ قَضَاءُ الله وأنتَ مَأجورٌ، وإنْ جَزِعْتَ نَفَذَ قضاءُ الله وأنت مأزورٌ، فلا تُفَوِّتُ الأجرَ بالجزعِ .

إِذَنَ فعلى الإنسانِ أن يَصْبِرَ ما دامَ في هذه الدنيا، ولن يستغنيَ عَن الصبرِ إلا بعدَ دُخُولِ الجنَّةِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]

والأحمقُ مَن قال : لَو ولِـمَ وكيف ..

(يَعْتَرِضْ عَلى الله الذِي خَلَقْ) : وكيف يعترضُ مَن كان نُطفةً ثمَّ عَلقةً ثم مُضغةً على جبَّارِ السَّماواتِ والأرضِ؟

مَن هو حتَّى يعترض؟

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]

يُروى أن بعضَ الأنبياء في بني إسرائيل سُلِّطَتْ في بعضٍ قُراهم امرأةٌ ظالمةٌ تظلِمُ النَّاس وتُؤذِيهم، فشَكَا إلى الله أمرَها، فأوحى الله إليه (إني خلقتُها وخلقتُ لها أيَّاما تَظلِمُ فيها، فَفِرْ مِنْ قُدَّامِها حتى تنقضي أيَّامَها) أي : عِندي قضاءٌ وقَدرٌ أمضيتُهُ بحكمتي، ولن أرُدَّهُ بتفكيرِ أحدٍ مِن الخلقِ، فاعْرِفْ ما جَاء مِن أمري، والتزمْ بها أحببتُ مِنك ولا تَعْتَرِضْ.

فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..

(قَضَى وَقَدَّرْ) قضى : في سَابقِ عِلمِه، وقدَّر : بأنْ أجرى الحُكمَ على مَا سَبقَ في العِلمِ.

فالقضاءُ ما كانَ في الأزَلِ مِن عِلْمِ الله أنْ يَكُونَ كذا، والقَدَرُ حُدُوثُ ذلك في الواقِعِ، وبروزُه في عَالم الحسِّ في الوقتِ الذي قَضَاهُ الله، وبالحالِ والهيئةِ التي قَضَاهَا .

والرِّضا بقضاءِ الله وقدرِهِ شَأنُ الأكياسِ، والقُوَّةُ في هذا الرضا خُصُوصِيَّةُ الصِّدِّيقِين والمقرَّبين وهو علامَةُ رِضا الله عِنهم، فاطلب رِضاهُ عَنْكَ بِرِضَاكَ عَنْ

أقضيتِهِ وأقدارِهِ بحُسْنِ الصبرِ والتَّسليمِ وعدَمِ الجَزَعِ، ورِضَاكَ عن حُكْمِهِ بِحُسْنِ الامتثالِ والاجتنابِ، وكلما قَوِيتَ في رَضَاكَ عنه قابَلَكَ رِضَاهُ عَنْكَ، ويُسْتَشَفُّ سِعَةُ وعَظَمَةُ رِضَاهُ عَنْكَ بما في قَلْبِكَ مِن الرِّضَا بأحكامِهِ وأقدارِهِ جَلَّجَلَالُهُ.

(وقَضَى وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ بِحَقٍّ) أي بحكمَةٍ، فلا يَقْضِي ولا يُقَدِّرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبثًا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]

ومِن ظَنِّ أولئكَ الكُفَّارِ الباطلَ أنَّهم ظَنُّوا أن خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ كان لأجْلِ أنْ يعمَلُوا فيها ما شاؤُوا مِن مُشتهياتِهم، وجَلْبِ المطامِعِ التي تَطْمَعُ فيها نُفُوسُهُم، فانطلقوا في كونِ الله تعالى وفي ما سَخَّرَهُ لهم يُسَيِّرُونَهُ في مُشْتَهياتِهم لا يَقِفُونَ عِندَ أمرٍ ولا نهيٍ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

أما المؤمنون فيؤمنون أنَّ كلَّ شيءٍ خلقَهُ الله لحكمة، قال تعالى في وصفهم : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٢]

والخِزيُ العظيمُ أنْ يُدخِلَكَ نارَ الجَحِيمِ.

أمَّا الكَرامَةُ يومَ القِيامَةِ فللنَّبِيِّ والذين اتَّبعُوهُ : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨]

(وقَضَى وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْ بِحَقْ) : وفي طيِّ أقضيته حِكَمٌ تلِيقُ بعظمتِهِ وعِلْمِهِ المُطلَقِ جَلَّجَلَالُهُ، يَخْفَى فيها – مهما انْكَشَفَ لأرْبَابِ القُربِ مِن الله والمعرفَةِ به حِكَمٌ فيها – مَا يخفى على الكلِّ، قَالَ تَعالَى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١] وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]

وكانَ أهلُ الحِكْمَةِ في الأمَّةِ يقولون : طَيُّ الأقدارِ أسرارٌ .

وقد عبَّر سيِّدُنا عليٌّ بِلِسَانِ المعرفة عَن إدراك هذا وذَوقِهِ فقال : "لو كُشِفَ الغِطَاءُ لما اختَرتُمْ إلا الواقعَ"

لأنَّ هذا الواقِعَ جَرَى بحِكْمَةِ حَكيمٍ، وعِلْمِ عَلِيمٍ عَظِيمٍ، فلن تجدوا – مهما تصوَّرتُم وتخَيَّلتُم – أفضلَ ولا أحسنَ مِن هَذا.

وهذه الحقيقةُ لا تتناقَضُ ولا تتنافى ولا تتضَادُّ مع حَقِيقةِ وجوبِ الالحاحِ على الله في الطلَبِ، ووجوبِ العَمَلِ بالمستطاعِ فيما جَعَل مِن سَبَبٍ، ولا تتناقَضُ مع وُجُوبِ الاجتهادِ في الطَّاعات، فكلّه مُنْطَوٍ تحتَ حِكْمَةِ ربِّ الخليقَةِ الدَّقِيقَةِ، جَلَّجَلَالُهُ وتعالى في عُلاه، ولا يكون في مَشاهِدِهم [مَن هم؟] عندما تتجلَّى لهم هذه الحقائِقُ في ذرَّاتِ الوُجودِ إلا أن يقولوا :

واشْهَدْ جمالًا أشرقتْ أنوارُهُ   في كلِّ شيءٍ ظاهرًا لا خافِي

ومِن شِدَّةِ ظُهورِهِ خَفِيَ على أهْلِ الحِجَابِ وهُمُ الأكثرُ، وطَالَعَ مَن طَالَعَ ما أُذِنَ لهُم فيه، وما عَلَّمَهُم ربُّ الأرباب، والجميعُ تحتَ دائِرَةِ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وتحتَ حقيقةِ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]

(يَا قَلْبِي تَنَبَّهْ): لِعَظَمَةِ هذا الإلهِ وحِكمتِهِ، وأسرارِ تقديرِهِ في مملكتِهِ، وما انطوى فيها مما يغيبُ عنك، ولا تَصِلُ إلى حقيقته.

(يَا قَلْبِي تَنَبَّهْ): أنَّكَ ضَعِيفٌ لا تقوى على استيعابِ الأشياءِ.

(يَا قَلْبِي تَنَبَّهْ): أنَّك لو ابتُلِيتَ ببليَّةٍ لذَهَبَ كلُّ ما عِنْدَكَ أمَامها وانتهى أمرُكَ.

(يَا قَلْبِي تَنَبَّهْ): أنَّ في خزائِنِه تعالى ما يَجِلُّ عَن الوصفِ فالزَمِ الأدَبَ.

(يَا قَلْبِي تَنَبَّهْ): أنَّك عبدٌ وأنَّ ربَّك مَولى المجدِ.

(يَا قَلْبِي تَنَبَّهْ): أنَّ واجبَكَ الخُضوعُ والاستسلامُ والرِّضا بما حَكَمَ المَلِكُ العَلَّامُ.

اعْطِ المعيَّةَ حقَّهَا والزمْ لَهُ حُسْنُ الأدَبْ

واعلمْ بأنَّكَ عَبْدُهُ في كلِّ حَالٍ وَهو رَبْ

فما يَليقُ بالعبدِ إلا الخضوعُ والانكِسَارُ والأدَبُ والتَّسْليمُ والرِّضَا.

وقد أَخَذَ العبرَةَ بعضُ الأخيارِ وقد اشترى مملوكًا رقيقًا، فسأله: ما

اسمُك؟ قال ما سَمَّيْتَني، قال فما شَغْلُكُ ؟ قال ما شَغَلْتَنِي، فقال له: ما لِبَاسُك؟ قال ما أَلْبَسْتَني، قال : فهل عِنْدَكَ شيءٌ؟ قال : العبدُ لا يملِكُ شيئًا مع سَيِّدِه. فقال هذا الرَّجُلُ في نفسه: هذا مملوكٌ وأنا مملوكٌ، كُلُّنَا مملوكَين لله فكيف أنا مع ربي؟

ما اسْمِي إلا ما سمَّاني بِهِ ربِّي، ولو نَاداني النَّاسُ بأيِّ اسْمٍ، وما ينبغي أنْ يكونَ شُغْلِي إلا بما شَغَلَنِي بِهِ ربِّي، فلماذَا اشتغِلُ بغيرِه؟ فاتَّعَظَ بمملوكه، ووَقَعَ فَتْحُ البابِ على يَدِ ذَلِكَ المملوكِ، فصار مملوكُهُ أستاذَهُ.

وكان سيِّدُنا الشيخُ أبوبكر بن سَالم لا يجلِسُ إلا مُتَوَرِّكًا أو مُفتَرِشًا في مجالسِهِ كلِّها مدَّةَ خمسَةَ عشرَ سَنةً، فقالوا له: ألا تَتْعَبُ؟ فقال : إنما أنَا عَبدٌ وهذِهِ جِلْسَةُ العبدِ بين يَدي سيِّدِهِ.

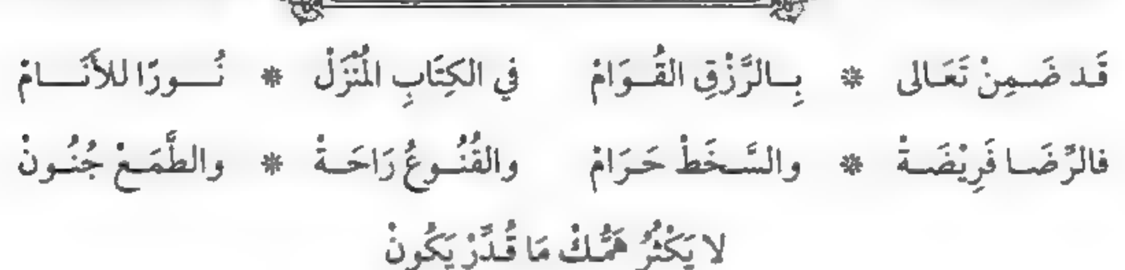
قال سيِّدُهم حبيبُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (إنما أنَا عَبدٌ آكُلُ كما يَأكُلُ العَبْدُ، وأَجْلِسُ كما يَجلِسُ العَبْدُ[1]) فصلى الله على خيرِ عبدٍ، وعلى آله وصحبه أهل المجد ومَن دَخَلَ في دائِرَتِهم .

فَتَنَبَّهْ هَدَاكَ اللهُ ..

(واتْرُكِ المُجُونْ) : اترُكْ عَدَمَ المبالاةِ بالأمْرِ، واتْرُكِ السَّفَهَ وعَدَمَ إنزالِ الشيءِ في مَنزِلَتِه، واترُكْ عَدَمَ المبالاةِ بالمهمَّاتِ والقضايا العظيماتِ، واتْرُكِ التَّساهُلَ فيما يَجِبُ أنْ يُنْتَبَهَ لَهُ، ويُعَظَّمَ أمرُهُ فيه.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن يحيى بن أبي كثير، باب أكل اللحم (٨/ ١١٦/ ٥٥٧٢) الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، وأخرجه أبو يعلى من طريق عائشة (٨/ ٣١٨/ ٤٩٢٠)، وأخرجه البزار في البحر الزخار من طريق آخر عن ابن عمر من دون لفظ (وأجلس) (١٢/ ١٥٤/ ٥٧٥٢) الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.



قَدْ ضَمِنْ تَعَالى * بِالرِّزْقِ القُوَامْ
في الكِتَابِ المُنْزَلْ * نُورًا للأَنَامْ
فالرِّضَا فَرِيضَةْ * والسَّخَطْ حَرَامْ
والقُنُوعُ رَاحَةْ * والطَّمَعْ جُنُونْ

لا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

(قَدْ ضَمِنْ تَعَالى بِالرِّزْقِ القُوَامْ) : جَعَلَ الله في الأرزاق تقتيرًا وسِعَةً، وكلُّهَا بأمرِه، وجَعَلَ ضمانًا لكلِّ دابَةٍ على ظَهْرِ الأرضِ مِن دَوَابِّ البَرِّ والبَحْرِ فيما يتعلَّقُ بالرزقِ القُوامِ مُدَّةَ العُمْرِ الذي كُتِبَ لَهَا.

والرِّزْقُ القُوامُ : الرزقُ الضَّروريُّ الذي يقومُ بِهِ البَدَنُ ما دَامَ في الحياةِ، ولَنْ يَمُوتَ أحدٌ حتى يَسْتَنْفِدَ رِزْقَهُ ولو مِقدارَ حَبَّةٍ، فإذا بقي لك يومٌ في الحياةِ فرِزْقُ هذا اليوم مَضمُونٌ لك مِن قِبَلِ خَالِقِ الحياةِ والموتِ جَلَّجَلَالُهُ، وهكذا حتى إذا فني أَجَلُكَ.. فَنِيَ رِزْقُكَ .

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : (إن رُوحَ القُدُسِ(١) نَفَثَ في رُوعِي(٢) أنَّ نَفْسًا لن تموتَ حتى تَسْتكمِلَ رِزْقَها وأجلَها، فاتَّقُوا الله وأحسِنُوا في الطَّلَبِ(٣))

لكن أكثر ما يَتَنَافَسُ فيه النَّاسُ ويتكالبُونَ عليه ليسَ الرِّزْقَ القُوامَ، وإنَّما ما زادَ على ذلك مِن أنواع التَّوسُّعَاتِ في المظاهِرِ والصُّوَرِ والتَّفَاخُرِ بالفانياتِ، ولو أنَّ كُلَّ واحدٍ طَلَبَ الرِّزْقَ القُوامَ واكتفى به لما رأينَا هذه الحروبَ التي نَرَاها اليومَ

---

(١) روح القُدُس : جبريل عليه السلام .

(٢) الروع : القلب أو العقل .

(٣) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده عن عبدالله بن مسعود (٢/ ١٨٥/ ١١٥١) الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت

في اليَمَنِ والشَّامِ وليبيا والعِراقِ وغيرها مِن بلدان العَالـم، لكن عندهم أطماعٌ ما بين مِتَعِ الدُّنيا وما بين سُلطتها وحُكْمِها، يتقاتلون عليها، فعرَّضُوا أنفسَهم لِضَياعِ الدُّنيا والدِّينِ والآخِرَةِ.

والعجيبُ أنَّ أحدَهم يطمَعُ في شيءٍ مِن الدنيا فيبيعُ دِينَه مِن أجلِهِ ثم لا يجدُ ذلك، أمَّا مَن يرجو الله ويطمعُ فيه ويصدقُ مَعَهُ فلا يخيبُ أبداً، بل ينالُ ما يرجو وفوقَ ما يرجو ويَأملُ ويطلبُ فهكذا مُعاملةُ الله للعبيد .

وما دام أنَّ الرزقَ القُوامَ في الكتابِ العزيزِ مَضمونٌ فأمَامَ هذا الضَّمانِ يحرُمُ القَلقُ والشَّكُّ والارتباكُ على الجميعِ، ويحرُمُ الاستعجالُ بطلَبِ الرِّزْقِ بِرِبًا أو سَرِقةٍ أو غِشٍّ أو أيِّ شيءٍ مما حرَّمَ الله.

ويحرُمُ أيضًا على القادِرِ المتفرِّغِ الذي جَعَلَ الله في حَوزتِهِ ودائرتِهِ مَن أَوْجَبَ عليه نَفَقَتَهُم أن يتخلَّى عَنِ الكسبِ الحَلالِ فيُضَيِّعَ أولادَهُ وأسرتَهُ.

وإذا قَامَ واجتهدَ فَسَيُسَخِّرُ اللهُ رِزْقَهم القُوامَ تَمامًا على يدِهِ مِن دونِ أن ينقصَ شيءٌ مِنه في أيِّ ظَرفٍ وفي أيِّ بَلَدٍ وفي أيِّ زَمَنٍ. ويبقى بعد ذلك جَوازُ ما كان مِن الزِّيادَةِ على قَدرِ الواجبِ مِن غير مكاثرةٍ ولا مُفَاخرةٍ ولا مُباهاةٍ.

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ يخشى على قُلوب كثيرٍ مِن هذه الأمَّةِ أن تُغَرَّ وتُخدَعَ فتقَعَ في هذِهِ المهلكةِ، فقد جاءَ عنْهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَالله لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا

أَهْلَكَتْهُمْ»[1]

يقولُ لنا : أخشى عليكم الانطلاقَةَ التي انطلقتْ بها الأممُ السَّابقةُ الكافرةُ في التكالُبِ على الدُّنيا والتَّنافُسِ عَليها، ودُوَلُ الكُفْرِ القائِمَةِ أيضًا في زمَانِنا، الذين لا يُبالُون باجتياحِ البُلدانِ وأخْذِ ثرواتِ الأراضِي لِغيرِهم، فهذا تنافُسٌ خبيثٌ، حذَّرنا منه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. لكنِ اتَّقُوا الله واصدُقوا معه وسَيُسَخِّرُها لكم ولا تتنافسوها بهذا الوجهِ مِن التنافُسِ القبيحِ، الذي لا يُبَالى فيه بالكَذِبِ ولا بالغشِّ ولا بانتهاكِ حُرُمَاتِ الأعراضِ والأموالِ والأنفسِ والدِّمَاءِ، والعياذُ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

فانظرْ كيفَ يحومُ النَّاس حَول شأنِ هذا الرِّزْقِ الذي فُتِنَ به الخَلْقُ، وانظرْ ما وَعَدَ الله به المؤمِنَ بأنْ يرزُقَه مِن حيثُ لا يحتسبُ إذا اتَّقى، وجَزَمَ بإعطائه ذلك قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]

ولكن هذه التسخيراتُ والتيسيراتُ للرِّزقِ القُوامِ وما بعدَه مِن الوَسَطِ الذي أحبَّه اللهُ ورسولُه المذكور في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقوله : ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] إنَّما تأتي بعدَ القُنُوعِ و الصَّبرِ، فإذا رَأَىَ اللهُ مِنه ذلك يسَّرَ له وسَخَّرَ لَهُ الرِّزْقَ القُوامَ وما دَنَا مِنه إلى حدٍّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمرو بن عوف ، باب الجزية (٤/٩٧/٣١٥٨) دار طوق النجاة



الوسَطِ بلا تبذيرٍ، ومَن لم يَبرُزْ مِنه ما يَراهُ الله في قلبِهِ وظاهرِهِ مِن عَلامَةِ الصِّدقِ معه في القناعَةِ والرِّضا والعَفافِ والصَّبرِ فلا يفتحُ له بابَ التيسيرِ.

قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في شأنِ التَّوَسُّطِ والكَفَافِ (لا تُلامُ على كَفَافٍ[1]) أي لا تتعرَّضُ للمسائَلَةِ والعَذابِ على كَفَافٍ مِن الرِّزقِ الحَلالِ، لكن ما زادَ على ذلك تكونُ فيه المسائَلَةُ والعذابُ.

وقد كان بعضُ العُقلاءِ والحكماءِ يقولُ لبعضِ الأخيارِ مِن التُّجار: يا فلان رَتِّبْ لِنَفسِكَ وأهلِكَ في غَدائكم وعشائكم وفُطوركم ونفقتِكم في البيتِ شيئًا وسطًا فلا تبذِّر ولا تقتِّر، فإذا قُمْتَ بهذا فيستَمِرُّ معك ذلك إلى أن تموتَ، وحاشا الله أن يُنقِصَ عليك شَيئًا مِن هذا، لكنْ إنْ بَذَّرْتَ أو قَتَّرْتَ فأمْرُكَ لَكَ.

لهذا لما رأى سيِّدُنا عُمرُ بن الخطَّابِ وَلَدَهُ يأكلُ اللَّحْمَ مع إدامٍ آخرَ علاهُ بالدُّرَّةِ وقال له : وَيحَكَ يا ابنَ عُمر، كُلْ يوماً خُبزاً ولحماً، ويَوماً خبزاً ولَبَناً، ويوماً خُبزاً وسَمْناً، ويوماً خُبزاً وزَيتاً، ويوماً خُبزاً ومِلْحاً، ويوماً خُبزاً قفاراً .

وهذا سيد الوجود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يجدُ فطورَهُ ولا عشاءَهُ في اليوم الذي وزَّع فيه مَالَ البحرين الكثير، وكان يأكل ما وَجَدَ ويلبَسُ ما وَجَدَ .

أما أهلُ المفاخرةِ والمباهاةِ فخرجوا عن حدِّ الوسطِ والاعتدالِ، وما عرفوا قَدْرَ الدنيا، ولا عَلِمُوا أنَّ النعيم مُقبِلٌ لكل مُتَّقٍ بما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ

---

(١) أخرجه الأمام مسلم من حديث أبي أمامة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى،(٣/ ٧١٨/ ١٠٣٦) الناشر: دار إحياء التراث العربي، وكمال الحديث «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»

ولا خَطَرَ على قلبِ بشَرٍ.

وهذا الضَّمانُ للرِّزْقِ القُوام .. أين نجده؟ قال :

(في الكِتَابِ المُنْزَلْ) : وهو القُرآن الكريم، أنزلَهُ الله نُوراً للعِبَادِ، فالحمدُ لله على ذلك، فاسْتَنِرْ به وثِقْ بما قال الله في كتابه، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]

وقَالَ تَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]

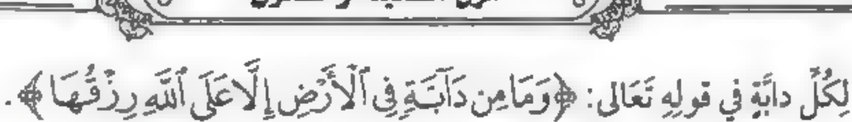
فهذا ضمانٌ مِن الله عَزَّوَجَلَّ، فهل تَثِقُ بهِ، أم أنك تَنتَظِرُ أنْ يُقَنِّنَ لك أهلُ الاتجاهاتِ ومَن يُسمُّونَ أنفُسَهُم بصُنَّاعِ القَرارِ هناك وهناك، وهُم تحتَ حُكْمِه جَلَّجَلَالُهُ؟

جَاء في الحديثِ عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ : (مَنْ طَلَبَ العِلْم تكفَّلَ الله له برِزْقِهِ[1]).

قالَ العَارِفُونَ والمحقِّقُونَ : إنَّ هذا زيادةٌ في الضَّمانِ بتيسيرٍ أكثرَ مِن ضمانِ الرِّزقِ القُوامِ العَامِ لِكلِّ دابَّةٍ على ظهرِ الأرضِ، فينالُ طالبُ العِلم تيسيرًا زائدًا بسبب تَفَرُّغِهِ للعِلْمِ مهما أخلصَ النيَّةَ وصَدَقَ مع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقَالَ الإِمَامُ الحدَّادُ : هَذَا تكفُّلٌ خاصٌ غيرَ التَّكفُّلِ العَامِ الذي تكفَّلَ به

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن زياد الصدائي (٤١/ ٢٣٢/ ٨٢٥١) الناشر: دار الفكر للطباعة. وأخرجه الخطيب (٣/ ١٨٠) والقضاعي (١/ ٢٤٤، رقم ٣٩١).



لِكُلِّ دابَّةٍ في قولِهِ تعَالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

(في الكِتَابِ المُنَزَّلْ نُورًا للأَنَامْ) : نورًا لَكَ في إيمانِك وفي يقينِك وفي عملِك وفي مُعاملتِك.

فمَن لم يَسْتَشْفِ بالقُرآن فلا شفاهُ الله « [ومَن تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله(1)]، [ومَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ(2) قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ](3)».

فوجَبَ على كلِّ مُؤمِنٍ أن يُحْسِنَ صِلته بالقُرآن، ويكونَ له نصيبٌ مِن تعظيمِه وحُسْنِ تَدَبُّرِهِ، فلا أقوى مِن الأسبابِ في تحصيلِ اليقينِ مِن حُسْنِ الإصغاءِ والاستماعِ لِكَلامِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خُصُوصًا فيما يتعلَّقُ بعَظَمَةِ الله وصِفاتِهِ وما يتعلَّقُ بالآخِرَةِ والأنبياءِ والمرسلين وأتباعِهم، وما حلَّ بِمُعَانِدِيهم مِن أنواعِ عُقوباته جَلَّجَلَالُهُ، فَتَأَمُّلُ ذلك وتكْرِيرُهُ وتَرْدِيدُ النَّظَرِ فيه مِن أقوى أسبابِ اكتسابِ اليقين، واليقينُ أشْرَفُ ما نَزَلَ مِن السَّماء إلى الأرضِ، وحُسْنُ اليقينِ أعلى الكراماتِ التي يُكْرِمُ الله بها مَن شَاء، ولكلِّ مرتبةٍ مِن مراتبه الثلاث؛ عِلمِ اليقين وعينِ اليقين وحقِ اليقين دَرَجَاتٌ، وقد ذَكَرَ بعضُ أهلِ المعرفَةِ بالله أنَّ فَوقَ مَرتَبَةِ

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب، باب ما جاء في فضل القرآن (٥/ ٢٢/ ٢٩٠٦) الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت وأخرجه الدارمي (٤/ ٢٠٩٨/ ٣٣٧٤). وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥/ ٣٠٠٠٧).

(2) هكذا في رواية ابن حبان، وجاء في بعض الروايات: ومَن جعله أَمَامَهُ بفتح الهمزة.

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه، عن جابر، باب ذكر البيان بأن القرآن من جعله أمامه (١/ ٣٣١/ ١٢٤) الناشر: مؤسسة الرسالة، وجاء في معجم الكبير للطبراني بلفظ (أمامه) بفتح الهمزة (١٠/ ١٩٨/ ١٠٤٥٠)

حقِّ اليقينِ مرتبَةَ حقيقَةِ اليقين، لكن ليس فيها مِن الخلائقِ إلا واحدٌ وهو حبيبُ الواحدِ الماجدِ سيِّدُنا محمَّدٍ جامِعُ المحامِد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ .

قال الإمامُ الحَدَّادُ :

عليـكَ بِتَحْسِـينِ اليقِـين فإنَّـهُ إذا تَمَّ صَارَ الغَيبُ عينًا بلا نُكُرِ

قال البخاري في مُقَدِّمَة صحيحه: قال ابن مَسْعُودٍ: (اليقينُ الإيمانُ كُلُّهُ[1]) فجميعُ شؤونِ الإيمانِ تندَرِجُ في اليقين .

وإذا قَوِيَ الإيمانُ ورَسَخَ واستولى على القلب سُمِّي يقينًا، وأول درجاته عِلْمُ اليقين، ثم ينتقل إلى عينِ اليقين، والأنبياءُ وكُمَّلُ ورثتِهم في حقِّ اليقين.

وقد انتهى سيِّدُنا أبوبكر الصِّديقُ وسيِّدُنا عليُّ بن أبي طالب إلى الذُّرْوَةِ في اليقين، ومما جَاء عَنهما : لو كُشِفَ الغِطَاءُ ما ازْدَدْتُ يَقينًا.

يقولُ سيِّدُنا الإمامُ الحدَّادُ : إذا عَرَفْتَ أنَّ الله قَدْ ضَمِنَ لك بالرِّزقِ القُوام في كتابِهِ المبينِ ..

(فالرِّضَا فَرِيْضَةٌ) : يجبُ علينا الرِّضا بما قَدَّرَ وقَسَمَ لنا مِن الأرزاقِ، ويجب علينا في امتثالِ أمرِهِ أن نطلب الرِّزْقَ مِن حلِّه، وأنْ نَصْرِفَه في محلِّه، وأنْ نَطْلُبَ الزِّيَادَةَ مما حبَّب إلينا طَلَبَ الزِّيَادَةِ مِنه؛ مِن العَلْمِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، ونسعى لذلك جُهْدَنا، وبذلك نُحَقِّقُ عُبُودِيَّتنا لإلهٍ يتولَّى مَن قامَ له بالعُبُودِيَّةِ بِرُبُوبِيَّتِهِ السَّنِيَّةِ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود، (٢/ ٤٨٤/ ٣٦٦٦) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

وإذا تَوَلَّتِ الرُّبُوبِيَّةُ العُبُودِيَّةَ تلاشتِ العُبُودِيَّةُ في الرُّبُوبِيَّةِ، وتلاشتِ العَبْدِيَّةُ في العِنديَّةِ، وصار العبدُ محلَّ نظرٍ مِن العلي الأكبرِ فيما بَطَنَ وفيما ظهر، منسوبٌ بالنسبة الإضافية التشريفية إلى الله؛ كما جاء عَن خير البرية في حديثِ (كُنْتُ سمعَهُ وكُنْتُ بَصَرَهُ[1]) وحديثِ (فبي يَسْمَعُ وبِي يُبْصِرَ[2]) وهذا هُو العطاءُ الأكبرُ الأفخمُ، الذي يجبُ على كل مؤمن أن يُعَظِّمَهُ، وأن لا يجعلَ له طَمَعاً في الدنيءِ يقطعه عن طَمَعِهِ في نَيلِ هَذا الأمر الرَّفِيعِ العَلِيِّ، ومَوالاة أهله .

ثَبَّتَ اللهُ قُلوبَنا على ذلك.

فلترَضَ بما قَسَم اللهُ لك في الأمورِ الحِسِّيَّةِ، ثم لا ينصرفُ همُّكَ إلى زيادةٍ على قدرِ الكفاف إلا مَا صَدَقَتْ فيه نِيَّتُكَ مِن الإحسانِ - عند قيام الدَّوَاعِي مَعَ صِحَّةِ البَواعِثِ، وعَدَمِ الانشغالِ عمَّا هُو أهمُّ وأعظمُ - إنْ كانَ أقامَك فيمَن أقامَهم في السَّعْيِ لِعِبَادِهِ، والعَمَلِ لحاجاتِ خَلْقِهِ، فإنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقيمُ في هذا مَن شاءَ من البرية، فيكون سعيُهم مُباركًا عليهم، تَصْدُقُ فيه نيَّاتُهم ومقاصِدُهُم ولا ينقطعون به عما هو أَهَمُّ ولا أولى بهم في أحوالِهم وشُؤونِهم.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري باب التواضع (٨/ ١٠٥/ ٦٥٠٢) ولفظه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته "

(٢) ذكره الإمام الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الأصل الثاني والستون والمائة في صفة الأولياء وحقيقة الولاية أو التحذير من إهانتهم (١/ ٢٣٦).

وينبغي أن يكونَ ذلك الطَّلبُ بتحرٍّ مِن حيثِ الظَّاهِرِ، مَعَ سُؤال الله أن لا يُعَذِّبَهُ عَليه؛ بالوقوعِ في الشُّبُهَاتِ أو الشَّهَوَاتِ، أو بإقامَةِ العِدلِ عليه في الآخِرَةِ، وكان مِن أدعيةِ بعضِ أكابرِ أهلِ البيتِ المُطَهَّرِ في القرون الأولى: اللهم إني أسألك صِحةً في تَقْوَى، وطُوْلَ عُمْرٍ في حُسْنِ عَمَلٍ، ورِزْقاً واسِعاً لا تُعذِّبْني عَليه.

أما في الأرزاقِ المعنوية فقد أحبَّ الله مِنَّا مع الرِّضَا طَلَبَ الزِّيَادَةِ مِن غيرِ غايةٍ يُنْتَهى إليها، والعملَ على ذلك بكلِّ المُستطاع، وأعلى رزقٍ في ذلك الرزقِ المعنويِّ.. رِزقُ اليَقينِ؛ الذي في داخِلِهِ وشُؤونِه المعرِفَةُ الخَاصَّةُ، والمحبَّةُ الخالِصَةُ، وهي رأسٌ في عظيمِ الأرزاقِ المعنوية؛ المحبَّةُ مِنه والمحبَّةُ لَهُ، وعنها ينتُجُ كمالُ الرِّضَا، والذي هو فريضةٌ لأهلِ كلِّ مرتبةٍ بما يليقُ بهم؛ فَفَرْضٌ على مَن كان أقربُ ومعرِفَتُهُ أرْحَبُ نصيبٌ مِن الرِّضَا، لا يَجِبُ على مَن كان دونه ممن يُحْجَبُ، وكلَّما ازداد مَعْرِفةً وَجَبَ عليه أن يَزْدَادَ رِضًا.

والرِّضَا أعلى ما يُنْعَمُ به على العَبْدِ مِن الرَّبِ جَلَّجَلَالُهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

إلا أن نصيبَ العبدِ مِن رضوانِ ربِّهِ عنه مَقْرُوءٌ ومُشَاهَدٌ ومُتَجَلٍّ في رِضَا العبدِ عنْ ربِّه جَلَّجَلَالُهُ، وكلما توفَّرَ نصيبُهُ مِن رِضَاه عَن رَبِّهِ توفَّرَ حظُّه مِن رِضَا رَبِّهِ عنه، بما لا يُكَيَّفُ، وما يَجِلُّ عن الوَصْفِ.

ومهما رَضِيَ العبدُ فعندَهُ في الرِّضَا غاياتٍ عَظِياتٍ إلا أنَّ هذه الغاياتِ إذا نُسِبَتْ إلى رِضَا ربِّ البريات تضاءَلَتْ، فالرِّضَا مِن العبد مما عِنْدَ العَبْدِ، قابلٌ

للنفاد في أصلِهِ؛ لكن الرِّضَا مِن الله مما عندَ الله لا ينفد، قَالَ تَعَالَى : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]

وهذه مِيزَةٌ عظيمةٌ وفارقٌ بين الأمرين، فما أحْسَنَ مُتَاجَرَةَ الذي يَقْبَلُ مِنكَ الفاني ويُعطِيك البَاقي، ويَقْبَلُ مِنك القليلَ ويُعْطِيكَ الكَثِير، ويَقْبَلُ مِنْكَ الصَّغِير ويهبُك الكبيرَ قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢]

ثم إنَّ هذا الرِّضَا يتَّسِعُ باتِّسَاعِ العُلُوِّ في المعْرِفَةِ بالله تعالى، والمحبَّةِ له قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا أحبَّ اللهُ قَوماً ابتلاهم؛ فمَنْ رَضِي فله الرِّضَا، ومَن سَخِطَ فله السخط»[1] فيُخْرِجُهُ بعدَ ذلك عَن دائِرَةِ المحبَّةِ بسخطِهِ على أقدارِه – نعوذُ بالله مِن ذلك –

قال أحبُّ المحبوبين، وأقربُ المقرَّبين إلى الله بعدَ أن رُمِيَ بالحِجَارَةِ في الطائِفِ وخَرَجَ مِنها، وكانَ لا يَستطيعُ الدُّخُولَ إلى مَكَّةَ إلا بإجارَةِ أحدٍ من أهلِ هَذِهِ المظاهرِ التي أقامَهَا الله في عَالَمِ الحِسِّ: «اللهم إليكَ أشكو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَواني على النَّاسِ يَا ربَّ العالمين، أنتَ ربُّ المستضعفين وأنتَ ربِّي، إلى مَن تَكِلُنِي؟؛ إلى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي، أم إلى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أمري، إنْ لم يَكُنْ بَكَ عَلَيَّ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك، باب الصبر على البلاء (٢/١٣٣٨/٤٠٣١) الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

غَضَبٌ فلا أبالي؛ ولكنَّ عَافِيَتَكَ هي أَوْسَعُ لي»[1].

وكان مِن شريف خِطَابِ الله له برضوانه الأكبرِ أنْ قال للمَلَكِ المُوكَّل بالجبال: سلِّم عليه، وادنُ مِنه، وحَكِّمْهُ في أمرِ الجبالِ التي حَوالي مكة؛ فإن شَاء أن تُطبِقَها عليهم فأطبِقْها، ولما كلَّمَهُ مَلَكُ الجِبَالِ، قال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[2] فقال له الملك: صَدَقَ مَن سَمَّاكَ الرؤُوفَ الرَّحِيمَ صلوات ربي وسلامه عليه.

(فالرِّضَا فَرِيْضَةٌ) : الرِّضَا بأحكامِ الشَّرِيْعَةِ بِحُسْنِ العَمَلِ والامتثالِ والتطبيقِ؛ فَرَحاً وطُمأنينةً واستبشاراً، فيُعطِي الزَّكَاة طَيِّبَةً بها نفسُه، ويعطي الصَّدقة طَيِّبَةً بها نفسُه، ويصومُ رمضانَ طَيِّبَةً بالصَّومِ نفسُه، ويقومُ ليلَهُ طَيِّبَةً بالقيامِ نفسُه.

وكذلِكَ الرِّضَا بالأقْضِيَةِ والأقدارِ؛ فيما قَدَّرَ عليه الكريمُ الغفَّارُ جَلَّجَلَالُهُ؛ وهي مِن أعظمِ مجالِ تحقيقِ أو مَعْرِفَةِ رِضَا الحقِّ عَنِ العَبْدِ.

قال الإمام الحداد :

وكُـنْ رَاضٍ بـما قَـدَّرَ المـولى وَدَبَّـرْ

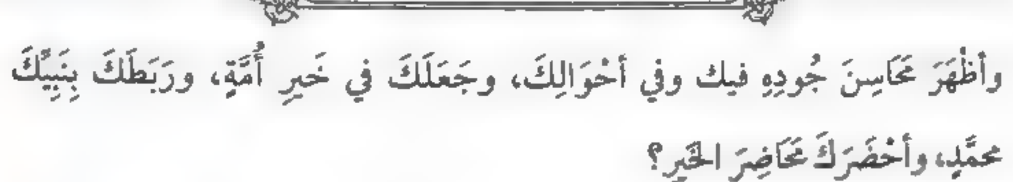
ولا تَسـخَطْ قَضَـا الله رَبِّ العَرْشِ الأكْبَرْ

(فالرِّضَا فَرِيْضَةٌ) فكيفَ لا تَرضى عَنْهُ وهو المُنْعِمُ عليك، والمُتَفَضِّلُ، والمَنَّانُ، والمُتطَوِّلُ، والسَّتَّارُ؛ الذي سَتَرَ معايبَك وقَبائِحَك، وذَمِيمَ صِفَاتِكَ،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن عبدالله بن جعفر (١٣/ ٧٣/ ١٨١) دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة، باب إذا قال أحدكم آمين (٤/ ١١٥/ ٣٢٣١) الناشر: دار طوق النجاة



وأظهَرَ محاسِنَ جُودِهِ فيك وفي أحْوَالِكَ، وجَعَلَكَ في خيرِ أُمَّةٍ، ورَبَطَكَ بِنَبِيِّكَ محمَّدٍ، وأحْضَرَكَ محاضِرَ الخَيرِ؟

كيف لا تَرْضَى عَنْهُ وهو الذي يَدْفَعُ عنك في كلِّ لمحَةٍ ونَفَسٍ ما لا تُحِيطُ بِهِ؟ فأُذُنُكَ وسَمْعُكَ عُرْضَةٌ لِأَنْ تُصَابَ بأنواعِ الإصاباتِ في أيِّ وقتٍ، وعَيْنُكَ وبَصَرُكَ عُرْضَةٌ لِأَنْ يُصابَ بأنواعِ الإصابات في أيِّ لحظَةٍ، وكُلُّ هذا مصروفٌ عَنْكَ بِصَرْفِهِ هُو جَلَّجَلَالُهُ، ولولا صَرْفُهُ ما قَدَرْتَ أنتَ ولا غيرُك على صَرْفِهَا عَنْكَ.

وكم مِن آفاتٍ صَرَفَها عَنْ لِسَانِكَ، وعَنْ جِهَازِكَ التَّنَفُّسِيِّ وعن كلِّ أجهِزَةِ جِسْمِكَ كان يَقْدِرُ أنْ يَبْتَلِيَكَ بها، ولو ابتلاك بواحدٍ مِنها لكانَ الأمرُ غيرَ هذا الحالِ الذي أنتَ فيه.

وكم عَدَدُ الهوَام والحيَّاتِ وأنواعِ الحَشَراتِ المَصْرُوفةِ عَنْكَ، ولو سَلَّطَ عليكَ واحدًا منها لتكدَّرَ صَفْوُكَ أيَّامًا، ولَرُبَّما تعَرَّضْتَ للمَوتِ والهلاكِ.

وكم على ظَهْرِ الأرضِ مِن شياطين الجنِّ والإنسِ لو سَلَّطَهُم عليك لكان الأمرُ صعباً .. قَال الله تَعَالى مُذَكِّرًا أصحابَ نَبِيِّهِ بِذَلِكَ : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]

لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَارِفٌ عَنْكَ كلَّ ذلك، ومع ذلك يَسْتُرُكَ ويَفْتَحُ لَكَ بَابَ التَّوْبَةِ ويُحْضِرُكَ محاضِرَ الخيرِ . فكيفَ لا تَرْضَى عَنْهُ؟

وقد عَانى الحبيبُ محمَّدُ بن عبدالله الهدَّارِ في آخِرِ حياتِهِ أمراضًا كثيرةً،

واشتَدَّ عليه بعضُها في آخِرِ أيَّامِهِ، وكان مما عاناه مَرَضٌ في الرِّئَةِ قال لَهُ أحدُ الأطباءِ المتخصصين : أنَّ غايتَه في الحياةِ أن يعيشَ مَعَ هذا المرضِ عشرين يومًا، فعاشَ أكثرَ مِن عِشرين سَنَةً، وقد اتَّصَلَ بالحبيب محمَّدِ الشَّاطري في آخِرِ أيَّامِهِ بعدَ خُروجِهِ مِن المستشفى يقول له : أُشْهِدُكَ بأنِّي رَاضِي .. راضي .. راضي عَن رَبِّي .

فيَجِبُ أنْ تَرضَى بما قَدَّرَ اللهُ تعالى لَكَ مِن قَليلٍ أو كثيرٍ، وَعَدَمُ الرِّضَا جَلَبَ السُّخْطَ مِن الله على كثيرٍ مِن الخَلْقِ.

قالَ بعضُ العَارفين الصَّالحين لتائب مِن سَرِقَةِ أكفانِ الموتى: كم نَبَشْتَ مِن القُبُورِ؟ قال : كثيرٌ، لكن وَجَدْتُ أكثرَهم مُسْتَدبِرين القِبْلَةَ، فقال له : أتدري لم يُفْعَلُ بهم هَكذا؟ قال : لا، فقال هذا العارف: يُفْعَلُ بهم هكذا لِشَكِّهِم في الرِّزْقِ؛ يعيشون مع الله شاكِّين في الرِّزْقِ غيرَ مطمئنِّين وغيرَ راضِين.

فلذا يقولون : الشَّكُّ في الرِّزْقِ شكٌّ في الرَّزَّاقِ، جَلَّ جَلَالُهُ.

فإذا كنتَ تريدُ رِضاءَهُ الأكبرُ فَارْضَ عنه فيما قَسَمَ لَكَ وفيما أعْطَاكَ وفيما فَرَضَ عليك، أما السَّخَطُ عَلَيهِ فَحَرَامٌ .

فلا تستهنْ بالقَليلِ ولا تَسْتَخِفَّ باليسيرِ.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ وقَد رَأَى كِسْرةً مُلقَاةً على الأرضِ فمَشَى إليها وأَخَذَهَا ثُمَّ مَسَحها فأكلها : " يَا عَائِشَةُ أَحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ الله فَإِنَّهَا قَلَّ مَا نَفَرَتْ

مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَكَادَتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ»[1]"

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشِي في الطريقِ يَوْمًا فرأى تمرةً فأَخَذَهَا وقال : «لَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا»[2] ثم أعطاهَا لمن يأكُلُها، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَظِّمُ النِعمَةَ وإنْ دَقَّتْ.

ولهذا قال سيدُنا الشيخُ أبو بكرِ بن سَالم : لو لم نَشكُرْ على القَلِيلِ مَا جاءَنا الكثيرُ .

فالحمدُ لله على نِعَمِهِ .

ونحن اليوم مَن مِنَّا لا يجدُ غَداءَه أو عشاءَه؟ ربَّما القليلُ مِن المسلمين يَنْزِلُ بهم شيءٌ مِن هذا والنَّاسُ في غَفْلَةٍ عَنْهُم، لكن عامَّتنا على غيرِ ذلك، وقد كَان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرْسِلُ الجيشَ وزادُهُ جِرابٌ مِن التَّمرِ، فكان يُعْطَى لكلِّ واحدٍ في اليومِ ثلاثَ تمراتٍ، ثمَّ تمرتين، ثم تمرةً واحدةً يأكلها ويَشْربُ معها الماء، حتى سألوهم : ما تُغْنِي عنكم تمرة؟ قالوا : وَجَدْنَا أثَرَها حينَ فَقَدْنَاها، ثم أَرْسَلَ اللهُ لهم حُوتًا كبيراً مِن البحرِ فأكلوا مِنه ثمانية عشر يومًا[3] حتى سَمنوا، فانظر كيف

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة، باب تعديد نعم الله عز وجل (٦/ ٣٠٧/ ٤٢٣٧) الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، باب إذا وجد تمرة في الطريق (٣/ ١٢٥/ ٢٤٣١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبدالله، باب حمل الزاد على الرقاب (٤/ ٥٥/ ٢٩٨٣) الناشر : دار طوق النجاة بلفظ «خَرَجْنَا وَنَحْنُ ثَلاَثُ مِائَةٍ نَحْمِلُ زَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا، فَفَنِيَ زَادُنَا حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا يَأْكُلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَمْرَةً»، قَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، وَأَيْنَ كَانَتِ التَّمْرَةُ تَقَعُ مِنَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَقَدْنَاهَا، حَتَّى أَتَيْنَا البَحْرَ، فَإِذَا حُوتٌ قَدْ قَذَفَهُ البَحْرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا مَا أَحْبَبْنَا»

أرسلهُم رسولُ الله وزادُهم جِرابُ تـمرٍ.

لكن في هذا الزمن اخْتَلفَتِ الأفكارُ كثيراً، فصارتْ تُشْبِهُ أفكارَ الدَّجالِ الذي يَلعَبُ على الناسِ بمظاهرِ الطَّعامِ والشَّرابِ والرِّزْقِ عند خُرُوجِه.

أعاذنا الله من شَرِّهِ.

فإنْ أردْتَ الرَّاحَةَ فاقنعْ بما تيَسَّرَ لك تُصْبِح مَلِكًا، قال الله لقومِ موسى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]

كيف جَعَلَهُم ملوكًا؟

إذا وَجَدَ الواحِدُ قوتَ يومِه وليلتِه، وعنده مَسْكنٌ يسكُنُ فيه، وزوجةٌ يأوي إليها، وخَادمٌ يخدمه اعتُبِرَ مَلِكاً.

قال سيِّدُنا الشافعي : وإنَّما الغِنى عَن الشيء لا به.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بَيانِ هَذا المعنى : (ليسَ الغِنَى عَن كَثرَةِ العَرَضِ، ولكنَ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ[1]) .

والغِنَى الحقيقيُّ إنما يكون بالله .

فاسْتَغْنِ بالله تكنْ ذا غنًى   مُغْتَبِطًا بالصَّفْقَةِ الرَّابِحَة

نسألُ الله أن يرزُقَنا الإيمان واليقين، ويرزقنا التنافسَ الطيِّبَ الشَّريفَ، وأشرف ما يكون مِن تنافُسِ المكلفين على ظَهْرِ الأرضِ أن يتطلَّبُوا الوصولَ إلى دَارِ النَّعِيمِ والشُّرْبَ مِن الرَّحِيقِ المختومِ الذي خِتَامُهُ مِسْكٌ، ومِزاجُهُ مِن التَّسنيمِ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب الغنى غنى النفس (٨/ ٩٥/ ٦٤٤٦) الناشر: دار طوق النجاة

فهؤلاء الأشرافُ، وأشرفُ هَؤلاءِ الأشرافِ مَن تمتَدُّ آمالُهم إلى الكَرَعِ مِن التَّسنيم الذي يُمْزَجُ منه هذا الشَّرابِ .قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢ – ٢٨]

فالأبرارُ يُسْقَونَ مِن رحيقٍ مختومٍ مُغَطىً ومختومٍ بالمِسْكِ لكن مِزاجُ هذا الشرابِ الذي تَكْمُلُ به حَلاوتُهُ وتَعْظُم به صَفوَتُه (مِن تسنيمٍ) .

وما تسنيم؟

قال : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ مُباشرةً، فللمقربين شرابُ التسنيم ولغيرِهِم مَزِيجٌ مِنه .

هذا ما دعانا الله إلى التنافس فيه، أما أهلُ الدنيا فيصيحون علينا ليلَ نهارَ للتَّنافس في المظاهر، والوظائفِ، والسِّياسَةِ.

وأنت اليومَ تسْمَعُ هذا الكلام.. وَقَدْ دَخَلْتَ مَدارِسَ كَثِيرةً وَحَضَرْتَ مَحَاضِرَ كثيرَةً هل وَجَدْتَ فِيها مَن دعاكَ وحَامَ حولَ عَقْلِكَ لِيَصْرِفَ وِجْهَتَكَ للتَّنافُسِ في هَذا الأمرِ الأشرفِ؟

ما هذا الموتُ في العُقُولِ والقُلُوبِ والأفكَارِ، وما هذا الانحطاط والاستجابة إلى دَعْوَةِ إبليسَ وجُندِهِ ؟

على ماذا يتنافسون؟ والرحمنُ يقولُ لهم : ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾

وقد قال اللهُ لنا في الآيةِ الأخرى بعد ذكرِ مصيرِ الذي كان يضحَكُ ويستهزِئُ على المؤمنين: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠ – ٦١]

فيجبُ أن تَنْصرِفَ أفكارُ المؤمنين لِلعَمَلِ بما يُثْمِرُ هذا الفوزَ العظيمَ.

(فالرِّضَا فَرِيْضَةٌ) : رَزَقَنَا الله القيامَ بهذِهِ الفَرِيْضَةِ على ما يُحِبُّ، ومَكَّنَنا في الرِّضَا، وأكْرَمَنا مِنه بِالرِّضَا، الذي يزداد في كلِّ لمحةٍ ونَفَسٍ أَبَداً سَرمداً بلا انقطاعٍ، اللهم آمين، وجَعَلَنا مِن أسْعَدِ عِبادِهِ المؤمنينَ بسماع نِدائِهِ في الجنَّاتِ: «اليوم أُحِلُّ عليكم رِضْوَاني، فلا أَسْخَطُ عليكُم بَعْدَهُ أبداً»

نَسأَلُ اللهَ أنْ يُكرِمَنا بِنَصيبٍ وافِرٍ مما جَعَلَ لخواص عبادِهِ مِن مناداتِه لهم بكريم الرِّضَا، والخَصَائصِ في مَعانيه العُلا آمين اللهم آمين .

ولو سَعَيْتَ مِن أقصى الأرضِ إلى أقصاها مَشياً على رَأْسِكَ إلى مجمعٍ يُنَادَى الحقُّ فيه ويُسْأَلُ، ويُدعى بهذا الدُّعَاء لكان ذلك قَلِيلاً في حقِّ هذِهِ الدَّعْوَةِ.

نسألُ الله أنْ يَقْبَلَنا ويستَجِيبَ لَنَا ويكرِمَنا بما هُو أهلُه.

(فالرِّضَا فَرِيْضَةٌ والسَّخَطُ حَرَامٌ) السَّخَطُ : التَّبَرُّمُ والجَزَعُ مِن قضاءِ الله وقَدَرِهِ، فلا تجزعْ ولا تتبرَّمْ مِن قضاء الله فإنَّ مجارِيَ الأحداثِ اليومية تُعَلِّمُكَ –

حتى في حدود مَدَارِكِكَ أنتَ في العَالم الحسي - أنَّ في كثيرٍ مما تعتقدُهُ خيرًا لك شَرًّا لَكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

يقول الإمام الحداد:

ألا يا صاحِ يا صاحِ لا تجزَعْ وتَضْجَرْ   وسَلِّمْ للمَقَاديرْ كي تُحْمَدْ وتُؤْجَرْ

وكُنْ راضٍ بما قَدَّرَ المَولى ودَبَّرْ   ولا تَسْخَطْ قَضَا الله رَبِّ العَرشِ الأكْبَرْ

وكُنْ صَابِرٍ وشَاكر   تَكُنْ فَائِزْ وظَافِرْ   ومِن أهلِ السَّرَائِرْ

رجالِ الله مِنْ كُلِّ ذِي قَلبٍ مُنَوَّرْ   مُصَفًّى عَن جميعِ الدَنَسْ طَيِّبْ مُطَهَّرْ

ويقولُ في قَصِيدَةٍ أُخرَى وقد جَاءتْ له أخبارٌ مِن الهند بوفاةِ كثيرٍ مِن أهْلِ وِدَادِهِ في أوقاتٍ مُتَقَارِبَةٍ مطلعها:

مرَّتْ لنا بالحِمَى المأنوسِ أعَيَادُ   مَعَ الأحِبَّةِ لو عَادَتْ ولو عَادُوا

كُنَّا قضينَا بها الأوطَارَ في دَعَةٍ   وطيبِ عيشٍ فما كادتْ وما كَادُوا

يقولُ في آخِرِهَا:

وقَدْ رَضِينَا قضاءَ الله كيفَ قَضَا   واللطفَ نرجُو وحُسْنُ الصَّبْرِ إرشَادُ

(والقُنُوعُ رَاحَةٌ): القُنُوعُ رَاحَةٌ معجَّلَةٌ في الدُّنيا وثوابٌ مُؤَجَّلٌ في الآخِرَةِ؛ وهو يَسْتَجْلِبُ لك السُّرُورَ والأُنْسَ والحُبُورَ، فكم مِمَّنْ مَضَى قَبْلَنا وفي زمانِنا كَانَ مَتَاعُهم قَلِيلًا وفيهِم مَن يجوعُ أحيانًا ومَن لا يَجِدُ عَشَاءَهُ أو غَدَاءَهُ، لكن كَانَ هناؤُهم وسُرورُهم وطُمَأنينتُهم وفَرحُهم البَاطِنُ، وزَهْوُ نُفُوسِهم واستبشارُهم

وانشِرَاحُهم لا يَجِدُ مِنهُ مُلُوكُ الأرضِ وأربابُ الثَّرَوَاتِ الكبيرة عُشْرَ العُشُرِ. هَذا في الدنيا وستأتي الآخرة ويَنْكَشِفُ مَا لهؤلاءِ وما لهؤلاءِ.

(والطَّمَعُ جُنُونٌ) : لأنَّه مُغَالبةٌ لما لا يُغْلَبُ، ومُحاوَلةٌ لما لا يُمْكِنُ، فهو يُريدُ ما ليسَ له ولا يَقْدِرُ عليه، وهَذا نوعٌ مِن أنواعِ الجُنُونِ.

وقد جَعَلَ الله لنا أمثلةً في عَالم الحِسِّ في القَنَاعَةِ والطَّمَعِ، ففي طَبْعِ العنكبوتِ معنىً مِن القَنَاعَةِ، وفي طَبْعِ الذُّبَابِ مَعْنىً مِن الطَّمَعِ، فتَجِدُ الذُّبَابَ لا يتوقَّفُ عَن الحركَةِ، ويذهب هُنا وهُناك باحثاً عن أي شيء يأكُلُه، بينما العنكبوتُ تنْصبُ شِبَاكَها وتَنْتَظِرُ رِزْقَها، فيأتي هذا الطَّامِعُ ويَقَعُ في شِبَاكِ هذا القَانِعِ، فتَنْسُجُ عليهِ خُيُوطَها وتنتهي حياتُهُ وطمعُهُ.

يقولُ الإمام الحداد :

وإيَّــاكَ والأطــماعَ إنَّ قَرِينَهَــا ذَلِيلٌ خسيسُ القصْدِ مُتَّضِعُ القَدْرِ

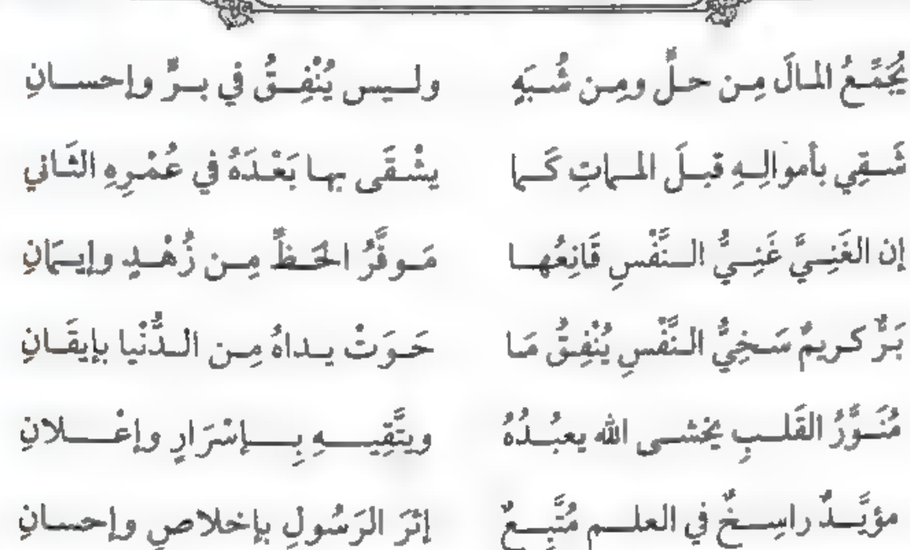
والحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دَعَا عِبادَهُ أن يَرْفَعُوا أنفُسَهم عَن الطَّمَعِ في بَعْضِهم البعض، وعَن الطَّمَعِ في المتاعِ الفَاني، إلى الطَّمَعِ في خَزَائِنِهِ المليئَةِ بالعَطَاءِ والفَضْلِ، حتى كانَ بعضُ الصَّالحين يقولُ : فإنَّ لي فيك أطماعًا مثلَ أطماعِ أشعب.

يقول الإمام الحدَّادُ في ذلك :

إن القَنَاعَــةَ كَنــزٌ لــيس بالفَــاني فاغنمْ هُدِيتَ أُخَيَّ عيشَها الهاني

وعِشْ قَنوعًا بلا حِرْصٍ ولا طَمَعٍ تَعِشْ حميدًا رَفِيعَ القَدْرِ والشَّأنِ

لـيسَ الغَنِـيُّ كثـيرَ المـالِ يخزُنُـه لحادِثِ الدَّهْرِ أو للوَارِثِ الشَّاني



يُجَمِّعُ المالَ مِن حلٍّ ومِن شُبَهٍ ... وليس يُنْفِقُ في برٍّ وإحسانِ

شَقِي بأموالِهِ قبلَ المماتِ كَما ... يشْقَى بها بَعْدَهُ في عُمْرِهِ الثاني

إن الغَنِيَّ غَنِيُّ النَّفْسِ قَانِعُها ... مُوفَّرُ الحَظِّ مِن زُهْدٍ وإيمانِ

بَرٌّ كريمٌ سَخِيُّ النَّفْسِ يُنفِقُ مَا ... حَوَتْ يداهُ مِن الدُّنيا بإيقانِ

مُنَوَّرُ القَلبِ يخشى الله يعبُدُهُ ... ويتَّقِيهِ بإسْرَارٍ وإعْلانِ

مؤيَّدٌ راسِخٌ في العلمِ مُتَّبِعٌ ... إثرَ الرَّسُولِ بإخلاصٍ وإحسانِ

ويقولُ الشيخُ عُمرُ بامخرمة باللهجة الدَّارِجَةِ العَامِّيَةِ :

يا ضَنِيني ضَنَا حَالي ولا اطْمَعْ بِحِيلةْ ... حِيلَةِ العبدِ فيها قَدَّرَ اللهْ قَلِيلَةْ

الآدِمِيْ مَا يَقَعْ له غير مَا قَدْ قُضِي لَهْ ... لَوْ تَعِبْ مَا تَعِبْ مَا زَيَّدَوا لُهْ فَتِيلَةْ

ويقول الإمام العدني :

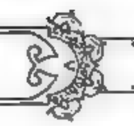
والرِّزقُ في أمِّ الكِتَابِ مَقْسُومْ

فَلا تكُنْ بِهْ يَا بَلِيدُ مَهْمُومْ

في كلِّ يومٍ لَكْ نَصِيب مَعْلُومْ

وجاء في الأثر: (ما قُدِّرَ لماضِغَيكَ أن يَمْضَغَاهُ فلا بُدَّ أن يَمْضَغَاهُ)؛ فلو كَتَبَ الله لك أنْ تأكُلَ حبَّةً واحدةً مزروعة في شَرْقِ الأرضِ أو غَرْبِها فلا بُدَّ أن تَصِلَ إلى فَمِكَ، ولا يُمْكِنُ لغيرِكَ أن يأكُلَها.

يقولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ



ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠] أي : يرزقُكُم ويرزُقُ دوابَكُم أيضًا .

وقد سَافَر اثنين سَعيًا في طَلَبِ الرزق ووصلوا إلى سنغافورة، وفَتَحَ كلُّ واحدٍ منهما دُكَّانًا، فكانتِ الناس تأتي إلى عِند أحدهِم، ولا تأتي إلى الثاني وهما يبيعان نَفْسَ البِضَاعَةِ، فقال الثاني للأوَّلِ سنتبادَلُ المحل فتبادلا، فتحوَّلَتِ النَّاسُ إلى دُكَّانِ الأوَّلِ وبَقِيَ حالُ الثاني كما هُوَ لَا يأتي إليه أحدٌ، ثم اشترى هَذا الثاني كميَّةً كبيرةً مِن الحديدِ فلم يشترِهِ أحدٌ منه حتى كادَ أن يَفْسُدَ، فعَرَضَ عليه الأوَّلُ شِراءَهَ مِنه فباعه عليه، وبعد أيَّامٍ جَاءت شَرِكَةٌ واشترتْ كلَّ الحديدِ بثمنٍ كبيرٍ مِنه، وكان الثَّاني حَسَنَ الخَطِّ فكان يقول: هذا عِندَهُ حَظٌّ وأنا عِندي خَطٌّ، والفرقُ بيننا نُقطَةٌ واحدةٌ تَأَخَّرَتْ عِنْدَهُ وتَقَدَّمَتْ عِنْدِي.

كلُّ ذِلك لِيَعْلَمَ الإنسانُ أنَّ الأمورَ مقدَّرَةٌ بتقديرٍ مِن عزيزٍ حكيمٍ، لا بِنَوعِ البِضَاعَةِ ولا بِحَرَكَةِ الإنسانِ ولا بالدِّعَاياتِ التي تُنْشَرُ فكلُّها مجرَّدُ أسبابٍ والرازِقُ هو الله، والرزقُ في أمِّ الكِتَابِ مقسومٌ .

ومما يروى أن اثنين تحاورا في مَسْأَلَةِ الرِّزْقِ، فكان أحدُهُم يقول : إنَّ الرزق لا يَأتي إلا بالسَّعي والاجتهاد، والآخَرُ يقولُ : السَّعْيُ سَبَبٌ والرِّزْقُ يأتي بسببٍ وبغيرِ سَبَبٍ والرَّازِقُ هو الله وَحْدَهُ، فقالَ الأوَّلُ للثَّاني: اقْعُدْ محلَّك وأنا سأسعى وسننظرُ أيُّنا يأتي بالرِّزْقِ، فخرج هذا يَسْعَى فَوَجَدَ فاكِهةً على بابِ البيتِ فأَخَذَهَا ورَجَعَ إلى صاحِبِه، فقال له : انظر، عِندما سعيتُ وَجَدْتُ الرِّزْقَ، فقال له ماذا وَجَدْتَ؟ قال : فاكهةً، قال أينَ هي؟ فرمَاها إليه، فتناوَلها وأكلَها، ثم قالَ له:



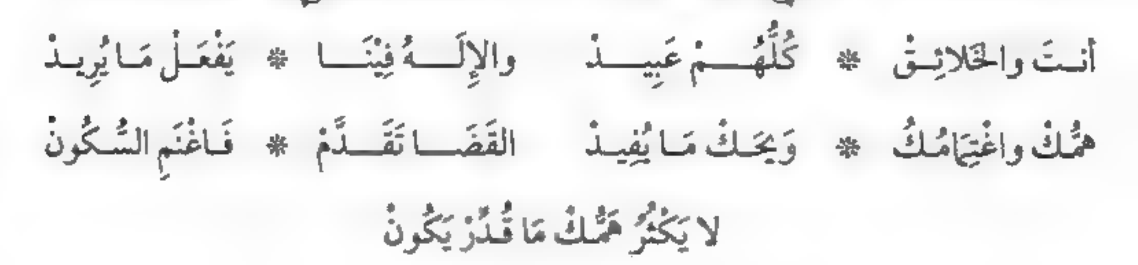
أينَ الفاكهة؟ فقال له : أنتَ الذي أكلتَها، فقال له: أرأيتَ؟ أنتَ سعيتَ في الرِّزْقِ وأنا الذي أكلتُهُ مِن دُون سَعْيٍ، فنَدِمَ هذا على اعتقاده هذا وتابَ مِنهُ.

ومما يُذْكَرُ أنَّ رَجُلًا صَالحًا جَاء إلى بلدٍ، فاعتكفَ في المسجدِ، وبعد أيَّامٍ خاطبه الإمامُ الذي يُصَلِّي بهم وقال له : أنتَ رَجُلٌ غَريبٌ جَالِسٌ في المسجد، ولا أرى لك عَمَلا فمِن أينَ تأكل ؟ فقالَ له : إن الله تعالى يَقُولُ في كتابِه : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ فقالَ له: هذا صحيحٌ لكن لا بُدَّ مِن الكَسْبِ، وأَخَذَ يُلِحُّ عليه، فقال له: إنَّ جارَ المسجِدِ اليهودي ضَمِنَ لي كلَّ يومٍ برغيفين. فقال له : الآنَ لا بَأسَ، فقال له هذا الصَّالح، سبحان الله!! ذَكَرْتُ لكَ ضمانَ الله فما اطمأنَّتْ نفسُكَ ولا وَثِقَتْ بِهِ، ثُمَّ ذَكَرْتُ لك ضَمانَ اليهودي فقلتَ : لا بأس، أتكونُ ضمانَةُ اليهودي الذي يُمْكِنُ أن يموتَ أو يُغَيِّرَ رأيَه أو يتراجَعَ عن ذلك أعظمَ مِن ضمانَةِ الحيِّ الذي لا يموتُ وقد أنزَلَ ذلك في قُرآنِهِ.

أنا لم أَكُنْ أَعْلَمُ أنَّك بهذِهِ العَقِيدَةِ، ولوْ كُنْتُ أعلمُ أنَّك هكذا مَا صَلَّيْتُ خلفَك، وأنَا الآنَ سَأقضي كلَّ صَلواتِي التي صَلَّيْتُهَا خَلفَك، وسَأُصَلِّي في مَسْجِدٍ آخَرَ حتى تتوبَ مِن هذا الاعتقادِ .

ولذا قالوا :

مَثَــلُ الــرِّزْقِ الــذي تَطْلُبُــهُ مَثَلُ الظِلِّ الذي يَمْشِي مَعَكْ
أنــتَ لا تُدْرِكُــهُ مُتَّبِعًــا فَــإذَا وَلَّيْــتَ عَنْــهُ تَبِعَــكْ



أنتَ والخَلائِقْ * كُلُّهُمْ عَبِيدْ ... والإِلَهُ فِينَا * يَفْعَلُ مَا يُرِيدْ

هَمُّكَ واغْتِمَامُكْ * وَيْحَكَ مَا يُفِيدْ ... القَضَا تَقَدَّمْ * فَاغْنَمِ السُّكُونْ

لا يَكْثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

(أنتَ والخَلائِقْ كُلُّهُمْ عَبِيدْ) : لِوَاحِدٍ أَحَدٍ، فَرْدٍ صَمَدٍ، إلهٍ حيٍّ قيُّومٍ لا شريكَ لَهُ، ولا مِثْلَ له، ولا نَظِيرَ له، ولا شِبْهَ له ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فَخَيرُكَ في الخُضُوعِ لجلالِهِ، وسَعَادَتُك في رحْمَتِهِ وإقبالِهِ، وفوزُكَ بفضلِهِ ونوالِهِ، وسعادَتُكَ في إقامَةِ العُبُودِيَّةِ لَه، وصِدْقِ المحبَّةِ والوَلَه، فاغنم تحصيلَ حَقَائِقِ السعادةِ بِأَدَبٍ مع عالمِ الغيبِ والشَّهادَةِ، مَعَ حُسْنِ الخضوعِ، وتمامِ الخشوعِ، وصِحَّةِ الرجوعِ إلى العليِّ السَّميعِ، والعظيمِ البديعِ.

دعِ الأوهامَ والخيالاتِ، فإنَّ عِزَّتَك وشَرَفَك في إدراكِ عُبُودِيَّتِكَ لِرَبِّ الأرضِ والسَّماواتِ، واخْرُجْ مِن الأوْهَامِ والظَّلامِ، واقتدِ بالإمَامِ، وأحْسِنِ الائتمامَ؛ فإنَّه خيرُ الأنامِ، حبيبُ إلهِكَ المَلِكِ العَلَّامِ، يَهَبُ ربُّكَ محبَّتَهُ لمن اقتدى بِهِ، ويتولَّى بعنايته مَن سعى في دَرْبِهِ.

(أنتَ والخَلائِقْ كُلُّهُمْ عَبِيدْ) : فأقِمِ العَلاقَةَ على إحسانٍ بالعبيدِ مِن أجلِ سَيِّدِهِم؛ ووَالِ أَوْلِياءَهُ تَفُزْ بِوَلائِهِ، وعَادِ مَن خَالَفَهُ عِناداً مِن خَلْقِهِ بِعَدَاوَةِ الله لَهُ، تَحْظَ بِرِضَائِه .

(أنتَ والخَلائِقْ كُلُّهُمْ عَبِيدْ) : فلا تَتَّخِذْ مِنهم أرباباً بتصريحٍ ولا كِنايةٍ، ولا

بظاهرٍ ولا بباطنٍ، ولا تُدَاهِنْ مِنهُم أحدًا في دينِهِ، ولا تتركْ شَيئاً مِن أمرِهِ ولا تقتحمْ شيئاً مِن نهيِهِ وزجرِهِ لأجلِ أحدٍ منهم؛ فكلهم عَبيدٌ وهو السَّيِّدُ، وهو المِلكُ، وهو الإِلَهُ، وهو الرَّبُّ، وهو القيُّومُ عَليهم، والقَاهِرُ فوقَهم جَلَّجَلَالُهُ.

(أنتَ والخَلائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ) : فانظُرْ مِنْهُمْ مَن أحبَّ أنْ تكونَ مَعَهُمْ فكُنْ مَعَهُم، وانظر مِنهم مَن شَرَعَ لك أن تُطِيعَهُم فأَطِعْهُم، وانْظُر مِنهم مَن شَرَعَ لك أن تُخَالِفَهم فَخَالِفْهُم، وانظرْ مِنهم مَن شَرَعَ لك أن تُقَاتِلَهم فَقَاتِلْهم، وانظرْ إلى مَا شَرَعَ لك مِن رَحْمَةِ الجميع، وتمنِّي الخيرِ لهم، فاتصلْ بالرَّحمةِ ذي الجَاهِ الوسيع؛ عبدِه المصطفى محمَّدٍ، وارحم بِرَحْمَتِهِ مَن أُرْسِلَ رَحمةً إليهم، وَهُمُ العَالمونَ.

(أنتَ والخَلائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ) : فلا تُلْقِ باللائِمَةِ على أحدٍ منهم في قليلٍ ولا كثيرٍ، إلا فيما شَرَعَ لَكَ مما آتاهُم مِن قُدُرَاتٍ واستطاعاتٍ وإراداتٍ ومَشِيئَاتٍ واختياراتٍ، فتعمَّدُوا صرْفَها في غيرِ مَرضَاتِهِ، واعْلَمْ أنَّ مِن وَرَاءِ كلِّ ذَلك - وما يَسْتَحِقُّونَ مِن اللَّوْمِ أو إِقَامَةِ الحدِّ - حِكْمَةٌ مِن حِكَمِ الواحِدِ الأَحَدِ فَتَأَدَّبْ، وإذا أقمتَ الحدَّ عَلى زانٍ مُحْصَنٍ أو شَارِبِ خمرٍ أو قَاذِفٍ أو غيرهم، وأنت مُوَكَّلٌ بِهِ بِحُكْمِ الشَّرْعِ؛ بِأنْ كُنْتَ والياً .. فَلا تَسُبَّهُ، ولا تَعجزْ عَن حُسْنِ الظَّنِّ أنْ يَتُوبَ اللهُ عليه، وأنْ يَقِيَهُ عَذَابَ القِيَامَةِ بما نَالَهُ مِن الحدِّ في الدُّنْيَا.

فقَدْ قَال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيمن رُجمَ حَدًّا: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ

لَوَسِعَتْهُمْ»[1] وفي رواية «إِنَّهُ لَيَنْغَمِسُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»[2] وقَالَ عَلَى مَن تعدَّد حَدُّهُ مِن أجلِ الخمْرِ عِندما سَبَّهُ أَحَدُهُمْ: «لا تلعنوه؛ فإِنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَه»[3]، فأدركته المحبَّةُ بِتَحْقِيقِ التَّوْبَةِ .

جاء في رواية البُخاري: «لا تَكُونُوا عَوْنَ الشيطان على أخيكم»[4].

فيَا أَيُّها العَبْدُ: كُنْ مَع العَبِيدِ بما شَرَعَ لك السَّيِّدُ، واقتدِ بالقُدوةِ الذي ارتضاهُ لَكَ سَيِّدُكَ الوَاحِدُ الأَحَدُ، واسمُ المقتدى: محمَّدٌ، الذي حُمِدَتْ خِصَالُهُ، وصَدَقَتْ أقوالُهُ، وعَظُمَتْ خِلالُه وأفْعَالُه؛ فهو قُدْوَةٌ في جميعِ الخِصَالِ، وأُسْوَةٌ في جميعِ الأحوالِ، لَمْ يتبوَّأْ في كلِّ حالٍ إلا ذِرْوَةَ الكَمَالِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

(أنتَ والخَلائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ) : وقد قال القائِلُ مِن ذَوِي الحكمة: لو نَزَلَتْ بِكَ أو بِأولادِكَ مُصِيبةٌ فاعلمْ أَنَّكَ قُصِدْتَ بِذَلِكَ، فأَحْسِنْ بينَك وبينَ الله؛ فإِنَّهُ لا يُسَلِّطُ أحدًا مِن العَبِيدِ عليكَ أو عَلَى أولادِكَ، ولا يَنَالُهم شيءٌ مِن السُّوءِ إلا بكسبٍ مِنْكَ، وبِسُوءٍ صَدَرَ مِنكَ .

وكما أنَّ الذي يُسْنِدُ العَطَاءَ إلى مَن يُسْدِي إليهِ مَعروفًا - وكأنَّه مُسْتَقِلٌّ بِهِ - صَاحِبُ باطلٍ؛ فالذي يُسْنِدُ كلَّ الأذى لمن يؤذيه - وكأنَّهُ مُسْتَقِلٌّ بِهِ - صَاحِبُ

---

(1) أخرجه الإمام مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه، باب من اعترف على نفسه بالزنا (٣/ ١٣٢١/ ٢٢) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، باب الستر على أصحاب القروف (١٢/ ١٥٨/ ٩٢١٠)

(3) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب، باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٨/ ١٥٨/ ٦٧٨٠)

(4) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٨/ ١٥٩/ ٦٧٨٠)

بَاطِلٍ أيضًا؛ فما سُخِّرَ هذا ولا سُلِّطَ هذا إلا لِحِكَمٍ مِن قِبَلِ الذي يُسَلِّطُ ويُسَخِّرُ، ويُقَدِّرُ ويُدَبِّرُ، وما سَبَبُ التَّسْخِيرِ إلا الطَّاعَةُ، ولا سَبَبُ التَّسْلِيطِ إلا المَعْصِيةُ.

قال تَعالى في نَشْرِ رَايَةِ هَذا الأدب في عددٍ من آياتِ الكتابِ الأعظَمِ الأطيب، مخاطباً بني إسرائيل بسببِ ما نالهم مِن شِدَّةِ النَّصَبِ مِن عنجهية فِرعون: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]

فَلَمْ يَقُلْ بَلاءٌ مِن فِرعَونَ، بَلْ مِنْ رَبِّكُمْ، اختبَرَكُم بِه بتَسْلِيطِ هَذا الطَّاغِيَةِ .

(أنتَ والخَلائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ) : فاشْهَدْ هذه الحقيقة.. قَالَ تَعالَى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]

فكيف تكون مُولَّعًا بأحدٍ مِن هؤلاء العبيدِ؛ صَانعاً كَان أو مخترعاً أو لاعباً، وتاركًا صِلتَكَ بربِّك؟ أما تستحي ؟

(أَنتَ والخَلائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ): مُؤمِنُهم وكَافِرهُم، ومَلَكُهُم وإنسيُّهم وجِنيُّهم، وصَغيرُهم وكَبيرُهم، ونبيُّهم ورسولُهم، وصدِّيقُهم وفَاسِقُهم ومجرمُهم. فكسِّرْ أصنامَ الفُجَّار والكفار والأشرارِ القائمة في قلبِك وباطِنك .

يقولُ الإمام الحداد :

دَعِ النَّاسَ يا قَلْبي يَقُولُونَ مَا بَدَا	لَهُـمْ واتَّـثِـقْ بِـالله رَبِّ الخَلائِـقِ
ولا تَرْتَجِ في النَّفْعِ والضُّـرِّ غَيرَه	تبـارَكَ مِـنْ رَبٍّ قَـدِيرٍ وخَـالِقِ
فلَيْسَ لمخلُـوقٍ مِـن الأمـرِ هَهُنـا	ولا ثَمَّ شيءٌ فاعتمِـدْ قَـوْلَ صَـادِقِ

هُـو الـرَّبُّ لا رَبٌّ سِـواهُ وكُلُّهُـم عَبيدٌ وتحتَ الحُكْمِ مِن غيرِ فَارِقِ

قال الله لسيِّدِهم وأكرمِهم عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

فَهُم في العُبُودِيَّةِ كلُّهم تحتَ الحُكْمِ بلا استثناء؛ مِن حملةِ العرش، والكروبيين[1] وأهلِ سدرةِ المنتهى، وأهلِ البيتِ المعمور، ورؤساءِ الملائكة: كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وجميعِ سُكَّانِ السَّماوات، وبني آدم والجنِّ والإنسِ، فما الفارق؟ قال :

نَعَمْ بَعْضُهُم مِمَّنْ يُحِبُّ ويَرتَضِي لِطَاعَتِهِ والبَعْضُ عَاصٍ ومَارِقِ

بَعْضُهُم يحبُّهم ويُرضِيهم، ويُحِبُّ وَلاءَهم، ويُحِبُّ الثَّناءَ عليهم، ويُحِبُّ الانتماءَ إليهم، ويُحِبُّ متابعَتَهم، ويُحِبُّ أن تَكُونَ معهم؛ مِن أنبياءَ وأصفياءَ وصِدِّيقين، وعُلماءَ عَامِلين قَالَ تَعَالَى : ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]

والبعضُ عَاصٍ ومَارِقٍ: يُبْغَضُهُم و قَدْ حَذَّرنا مِنهم قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] وقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

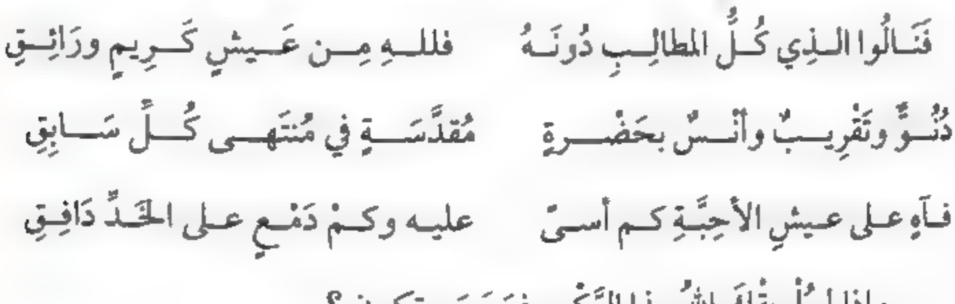
بتوفيقِـهِ صَـارَ المطيـعُ يُطِيعُـهُ وخَـالَفَ بالخُـذْلانِ كُـلُّ مُفَـارِقِ

فَسَلْ ربَّكَ التَّوفِيقَ والعَفْوَ والرِّضَـا وَكَوْنـاً مَـعَ أهـلِ الهُدَى والطَّرَائِقِ

رِجَـالٍ إلى الـرَّحمنِ سَـارَوا بهمَّـةٍ على الصِّدْقِ والإخلاصِ مِن غَيرِ عَائِقِ

---

(١) هم أعلى الملائكة وسادتهم.


فَنَالُوا الذِي كُلُّ المطالِبِ دُونَهُ ... فللهِ مِن عَيشٍ كَرِيمٍ ورَائِقِ

دُنُوٌّ وتَقرِيبٌ وأنسٌ بحَضْرةٍ ... مُقدَّسَةٍ في مُنتَهى كُلِّ سَابِقِ

فآهٍ على عيشِ الأحِبَّةِ كم أسىً ... عليه وكمْ دَمْعٍ على الخَدِّ دَافِقِ

وإذا لم يُلْحِقكَ اللهُ بهذا الرَّكْبِ فمَعَ مَن تكون ؟

فانظر خيرَ العبيد، وامشِ في منهجه الرشيد، تَنَلِ السَّعادة مع كلِّ سعيد.

(أنتَ والخَلائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدْ) : فَسَلْهُ أن يجعَلَ مُرادَهُ فيك خَيراً، وأن يوفِّقَكَ فتعملَ جُوداً وبِرّاً، وأن يرفَعَ لك عِنده قَدْرَاً، وأن يُصْلِحَ لك أمْراً، وأن يتولاكَ بما هو أهله سِرّاً وجهرَاً؛ فهو الفعَّالُ لما يُريدُ، ولا رَادَّ لِقَضائِهِ، ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ.

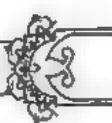
(والإله فِينَا يَفْعَلْ مَا يُرِيدْ) : يُقَدِّمُ ويُؤَخِّرُ، ويَضُرُّ ويَنْفَعُ، ويَمْنَعُ ويُعْطِي، ويُقَرِّبُ ويُبْعِدُ، ويُشْقِي ويُسْعِدُ، ويُحيِي ويُمِيتُ، فلا تُقَاوِمْ بإرادَتِكَ أو إرَادَةِ غيرِك إرَادَتَهُ.

فـ (هَمُّكْ واغْتِمَامُكْ وَيْحَكْ مَا يُفِيدْ) : ويحك : كَلِمَةُ تَرَحُّمٍ وَزَجْرٍ، أي: مَاذا يُفِيدُ هَمُّكَ واغتمامُكَ وقَدْ تَقَدَّمَ القَضاءُ (رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ)[1]

(هَمُّكْ واغْتِمَامُكْ وَيْحَكْ مَا يُفِيدْ) : همُّكَ بِغَيرِ إقامَةِ أمْرِ الله، خَوْفاً مِن أن ينالَك أو يُصِيبَكَ شيءٌ في شُؤون دُنياك وأحْوَالِكَ.. همٌّ وغمٌّ مُوجِبٌ للنَّصَبِ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس (٤/ ٦٦٧/ ٢٥١٦) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ولفظ الحديث : «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»



والتَّعَبِ في الحَياةِ والمنقلَبِ، يُضَيِّعُ عليك صَفْوَ مُنَاجَاتك وعِبَادَتِكَ، وقِيَامِكَ بمُهِمَّاتِكَ وواجِبَاتِكَ، ولا يُفِيدُكَ في شيءٍ.

فالهَمُّ بِغيرِ الله، وبِغَيرِ إقَامَةِ أوامِرِ الله ضَرَرٌ.. فَلِمَ تهتم؟!، والمبدِئُ الفاطِرُ قَائِمٌ على كُلِّ ذرَّةٍ مِن ذَرَّاتِ الكَونِ، لا يَغِيبُ عَنْه شيءٌ مِن تَصَرُّفَاتِنَا وأقوالِنا وأفعالِنا، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦-٧]

فهَلْ تَعْرِفُ الهَمَّ الذي يَنْفَعُكَ؟

الهمُّ الذي يَنفعُكَ هَمُّكَ بالله، وهمُّكَ بقُربِهِ، وبرِضَاهُ، وبمحبَّتِهِ، وبالمعرِفَةِ بِه، وهذا الهمُّ يُكْسِبُكَ أُنسًا في الدُّنيا لا تَجِدُهُ في أيِّ شيءٍ، أمَّا الهَمُّ بِشُؤونِ الأقضِيَةِ والأقدارِ، والمالِ والأهلِ والولدِ والدِّيارِ والمستقبلِ والحاضِرِ، فهذِهِ مُنازعةٌ وتجرُّؤٌ على الله.

فاجعل همَّك بِهِ واعتمادَكَ عليه، ولا تعتمدْ على مخلوقٍ فإنَّ مَن اعتَمَدَ على مخلوقٍ عَاشَ مَتْعُوبًا ومَهْمُومًا طُولَ عُمْرِهِ كَمَنْ يَتطَلَّبُ في الماءِ جَذْوَةَ نارِ.

(القَضَا تَقَدَّمْ): قد جَرَى بذلك القَلَمُ ولا تَسْتَطِيعُ أن تُغَيِّرَ مِن ذَلك شيئًا، فالهَمُّ لا يُفِيدُكَ .

(فَاغْنَمِ السُّكُونْ) : تَنزِلُ عليكَ السَّكِينَةُ، وتُدْرِكُكَ المعونَةُ، وتُكفَ الأهوالَ، ويتولَّاكَ الكبيرُ المتعالُ، ومهما دَبَّرتَ وخَطَّطْتَ ورَتَّبْتَ مَا قَضَى بِهِ لغيرِك فَلَنْ تَقْدرَ أن تأتِيَ به لِنفسِكَ ولو اجْتَمَعَتْ مَعَكَ حُكُوماتُ الدنيا كلُّها، ولو



قَدَّرَ لك شيئًا فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ رَدَّهُ عَنْك ولو اجتمع عليه أهلُ الدُّنيا كلُّهُم. فالإنسانُ ليس سِوى آلةٍ تُحَرِّكُها الجلالةُ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]

(فَاغْنَمِ السُّكُونْ) : ثِقَةً بِالله، واعتِماداً عَليه، وتَسْليماً له، وتفويضاً إليه؛ فهذه الغنيمةُ تُورِثُك ارْتِقَاءَ المراتِبِ، ونَيلَ وافِرِ المواهِبِ، وصَلاحَ الحَاضِرِ والعَواقِبِ؛ غنيمةٌ يَغْنَمُها الأطايبُ مِن أولي الألبابِ، الذين وَعَوا خِطابَ السُّنَّةِ والكِتَاب، فسَكَنُوا، واطمأنُّوا، وتَوكَّلُوا، ووثِقُوا، وفَوَّضُوا الأمرَ إليه .



الَّــذِيْ لِغَــيْرِكْ * لَا يَصِــلْ إِلَيــكْ والَّذِي قُسِمْ لَكْ * حَاصِــلٌ لَـدَيكْ
فاشْـتَغِلْ بِرَبِّــكْ * والَّــذِي عَلَيــكْ فِي فَرْضِ الحَقِيْقَةْ * والشَّرْعِ المَصُونْ
لا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

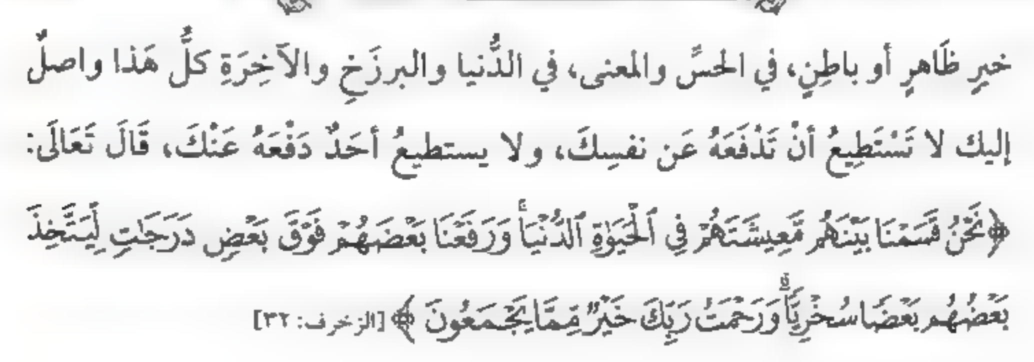
(الَّذِيْ لِغَيْرِكْ لَا يَصِلْ إِلَيكْ) : كُلُّ ما كَتَبَهُ الله تعالى لِغَيرِكَ مِن عِلمٍ، أو عَملٍ، أو مَالٍ، أو جاهٍ، أو أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ الخيرِ، أو مِن مرغوباتِ النُّفُوسِ أو كان قَضَاءً بِسُوءٍ أو شَرٍّ أو ضُرٍّ لا يُمْكِنُ أنْ يَصِلَ إليك دُونَ ذَلِكَ الغَيرِ بأيِّ حِيْلَةٍ وبأيِّ وَسِيلَةٍ، ولو باجتهادِكَ واجتهادِ أهلِ الأرض مَعَكَ، ولو انضاف إليهم أهلُ السَّماواتِ، لما تغيَّرَ ما كتبه الحقُّ جَلَّجَلَالُهُ.

قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لابنِ عمِّه عبدالله بن عباس: «واعْلَمْ أنَّ مَا أَخطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ومَا أصابَكَ لم يَكُن لِيُخْطِئَكَ»[1]

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]

(والَّذِي قُسِمْ لَكْ حَاصِلٌ لَدَيكْ) : الذي قُسِمَ لَكَ فِي الأزلِ بِقِسْمَةِ الحَقِّ مِن عِلمٍ، أو عَملٍ، أو عَقلٍ، أو فَهمٍ، أو وعيٍ، أو أي نوعٍ مِن أنواع الرِّزْقِ، أو

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس (٣/ ٦٢٤/ ٦٣٠٤) الناشر: دار الكتب العلمية ١٤١١-١٩٩٠



خيرٍ ظَاهرٍ أو باطِنٍ، في الحسِّ والمعنى، في الدُّنيا والبرزَخِ والآخِرَةِ كلُّ هَذا واصلٌ إليك لا تَستَطِيعُ أنْ تَدفَعَهُ عَن نفسِكَ، ولا يستطيعُ أحَدٌ دَفعَهُ عَنْكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]

قال القائل:

اعْتَبِرْ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم   تَلْقَهُ حَقًّا وبالحقِّ نَزَلْ

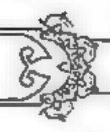
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]

فإذا عَرَفْتَ مَن القَاسِمُ ذَهَبَ عَنْكَ إلقاءُ اللَّومِ عَلى الخَلْقِ.

(والَّذِي قُسِمْ لَكْ حَاصِلٌ لَدَيكْ): سَيأتيك مِن أبعدِ مكانٍ ولو كان في فِكْرِ النّاسِ ضَربٌ مِن المسْتَحِيلِ.

قَالَ تَعَالَى عن قوم موسى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]

والنَّاظِرُ للأحداثِ بنظرةٍ بعيدةٍ عَن الاتصالِ بالحقِّ يقول: كيف يُمْكِنُ لهم أنْ يكونوا أئمةً، وفرعونُ يُذَبِّحُ أبناءَهم، وهو فوقَهُم بِسُلْطَتِه وجبروتِهِ! لَكِنْ كَانَتِ النِّهايَةُ كما قَالَ اللهُ وأرادَهُ، وبَدَأَتْ نِهايَةُ فِرعَون مِن حِينِ وُلِدَ ذلك الوَلَدُ الذي لم تَكُن أمُّهُ تَعرِفُ كيف تُبْعِدُهُ عَن القَتْلِ، فأتَاها الوَحي مِن الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ



إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]

ما هذِهِ الخِطَّة ؟ أهذا الصَبِيُّ هُو الذي سيهزُّ عَرشَ فرعون ويَقْلِبُه عَلَيهِ ؟

وكانتِ النِّهَايةُ كما قال تعالى : ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٤٠]

وقد قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسُرَاقَةَ وهو الذي كَان يُطَارِدُهُ في الهِجْرَةِ لِيَقْتُلَهُ: (كَيفَ بِكَ وأنتَ تَلْبَسُ سِوارَي كِسْرَى)[1] .

يَقُولُ هَذا وهو مطاردٌ في طريقِ هِجْرَتِهِ والمشركون يَتَعَقَّبُونَهُ لِيقتُلُوهُ، فقال له سُراقَةُ بعد مَا تيَقَّنَ أنَّ لَهُ شأنًا آخَرَ يختلفُ عَن بَقِيَّةِ البَشَرِ : اكتُبْ لي كِتَابًا بِهذا، فَأَمَرَ رسولُ الله سيِّدَنا أبابكرٍ أنْ يكتُبَ له كِتابًا، ومَرَّتِ الأيَّامُ وَلَبِسَ سُرَاقَةُ سِوارَي كِسْرَى في زَمنَ سيِّدِنا عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ .

(والَّذِي قُسِمْ لَكْ حَاصِلٌ لَدَيكْ) واصلٌ لَدَيكَ لا مَحَالَةَ، فَإِنْ كانَ لَكَ شغْلٌ فبماذَا تَشْتَغِلُ؟ قال :

(فاشْتَغِلْ بِرَبِّكْ) : اغْنَمِ الشُّغْلَ بالإِلَه، فإنَّ أسْمَى الأشْغَالِ، وأكْرَمَها وأَفْضَلَها أنْ يَشْتَغِلَ المخلُوقُ بالخَالِقِ؛ بذكْرِهِ، وطَاعَتِهِ، وتَأَمُّلِ آياتِهِ، ويشتغلَ بنبيِّه محمَّدٍ والاقتداءِ به، ويشتغل بتَأَمُّلِ بلاغِه وأحاديثِه، ويشتغلَ بأداءِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهِي، ويشتغلَ بمُطَالَعَةِ الأسماءِ والصِّفَاتِ، ومُشاهَدَةِ جمالها الذي لا

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي، باب الاختيار بالتعجيل في قسمة مال الفيء (٦/ ٥٨١/ ١٣٠٣٣) نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

تُعَبِّرُ عنه العِبَارَاتُ.

وهذا الشُّغْلُ الكَرِيمُ مِن شَأنِهِ أنْ يحرِّرَ المشغولَ به عَنْ كلِّ أنواعِ الاستعبَادِ والاستِتْبَاعِ لجميعِ أصْنَافِ الكائِنَاتِ؛ عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّها، وإذا صحَّ ذلك الشُّغْلُ، ونِيلَ ذَلِكَ الوَصْلُ، نازَلَ قَلبَ الإنسانِ ورُوحَه مِن جودِ الله وفُتُوحِهِ ومُنوحِه وعَطَايَاهُ ما ليس له مِن نَفَادٍ، ولا يَحصُرُهُ تَعْدادٌ، ولا يُمْكِنُ استِقْصَاؤُهُ بِشيءٍ مِن الكلمات، ولا حَصْرُهُ بأنواعِ العِبَارَاتِ؛ بل ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤] ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]

(فاشْتَغِلْ بِرَبِّكْ) : فقد دُعِيتَ إلى الشُّغْلِ بالفَانِيات فاشْتَغَلْتَ بِها، ودُعِيْتَ للاشتغال ببرامجَ لا منفَعَةَ فِيها فاشْتَغَلْتَ بِها، ودُعِيتَ إلى الاشتِغَالِ بنفسِكَ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ فاشْتَغَلْتَ بِها، ودُعِيْتَ إلى الاشتِغَالِ بالفُضُولِ الذي يَلِجُّ فيه الخَلْقُ فاشْتَغَلْتَ بِه، ودُعِيتَ إلى الاشتغال ببعضِ الألعابِ فاشْتَغَلْتَ بِها.

فمن الذي دَعَاكَ إلى الاشتغالِ بكل هذا وأنْتَ قَدْ دُعِيْتَ لِشُغْلٍ: أكبرَ، وأنورَ، وأفْخَرَ، وأزْهَرَ، وأجَلَّ، وأكمَلَ، وأفضَلَ، وأبهى، وأزهى، وأرفَعَ، وأجمعَ، وأوسعَ، وأتَمَّ، وأقومَ، وأعظمَ؛ فَلِمَ تَتْرُكُ هَذا الشُّغْلَ الأعْظمَ؟!.

أنتَ دُعِيتَ لِأنْ تَشْتَغِلَ بالله، فمَنْ أتْجَرُ مِنْكَ، ومَنْ أرْبَحُ مِنْكَ؟ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١١] أي : تشتغلون بي .



وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

أي: مَهما انطَلَقتُمْ في الحياةِ بأنواعِ وسَائِلِها وما فيها، فاجْعَلُوا المحبَّةَ القَلْبِيَّةَ لِي ولِرَسُولي، والشُّغلَ بِي وبِرَسُولي، لا تُقدِّمُوا شيئاً على ذَلك.

فلا يجوزُ صَرْفُ المحبَّةِ لِغَيرِ الله ورَسُولِهِ، ولا الجنَّةِ فَضلًا عمَّا سِواها.

فنُحِبُّ الله لأنَّهُ هُو الخالِقُ المُنشِئُ المُبدِئُ المُنعِمُ، ونُحِبُّ رَسُولَهُ لأنَّه أعلى وَسِيلَةٍ إلى الله، وأعظمُ سَبَبٍ لِنَيلِ كُلِّ المكارمِ مِن الله، فما أحدٌ في الخلائِقِ له فضلٌ علينَا ويَدٌ، مِثْلَ مُحمَّدٍ، وكلُّ مَن له يَدٌ علينا فمِن تحتِ يَدِهِ صلى الله وسلم عليه.

فجَزَاهُ الله عنَّا أحْسَنَ ما جَزى نَبِيًّا عَن أُمَّتِهِ.

ومِن رَحمتِهِ أنَّه يَرْقُبُ ما يُحلُو ويَحْسُنُ مِن أقوالِ أُمَّتِهِ وأفعالِهِم ونِيَّاتِهم مما يُعرَضُ عليه، فكونُوا ثلةً في أُمَّتِهِ تَسُرُّونَ قَلْبَهُ بما يُعْرَضُ عليه مِنكُم، وما يَصِلُهُ مِن أخبارِكم؛ فإنكم إذا اشْتَغَلْتُم بالله فَرِحَ مِنكم محمَّدُ بن عبدالله، وكان وُصْلَةً بينكم وبين الله، تُسْقَونَ بِها كُؤُوسًا، تُزَكَّى لَكُم بها النُّفُوسُ، وتَتَّصِلُونَ بالقُدُّوسِ.

(فاشْتَغِلْ بِرَبِّكَ): ويَا مَا أَحْسَنَ الشُّغْلَ بالله، فَلْيُحْسِنْ أَحَدُكُم التَّفكيرَ في كَيْفِيَّةِ قَضَاءِ هذهِ الأيَّامِ في هَذِهِ المجامِعِ واللقَاءاتِ والجماعَاتِ والحلقاتِ والقِراءَاتِ والغَدَوَاتِ والرَّوْحَاتِ التي نَغْدُوهَا ونَرُوحُها، وكيفَ يَسْتَخْلِصُ مِنها فَوائِدَ ومَحامِدَ، ويَتَزَوَّدُ مِنها بزادٍ شريفٍ مِنَ الصِّلَةِ بالله ورَسُولِهِ، ويُقوِّمُ أُسْرَتَهُ

وبيتَه وأهلَهُ على مَرضَاةِ الله جَلَّجَلَالُهُ، ويَقْطَعُ العَلاقَةَ بِكُلِّ صَدِيقٍ لا يُعْيِنُهُ على طَاعَةِ الله، ولا يَأْخُذُ بِيَدِهِ إلى مَرضَاةِ الله، ويُحِبُّ كُلَّ صَدِيقٍ وجَارٍ وصَاحِبٍ ومُجَالِسٍ يُعِينُهُ عَلى الإيمان بالله والشغل بما يُحِبُّهُ ويَرضَاه، ويُقَوِّي صِلتَهُ بِهِ، وأخْرِجُوا مِن دَيَارِكُم وأجْهِزَتِكُم، وأذْهَانِكُم وقُلُوبِكُم بَرَامِجَ الفُجَّارِ والكُفَّارِ والأشْرَارِ، ولا تُبْقُوا مِنها بَقِيَّةً، فهذا مِن الشُّغْلِ بالله؛ وإذا طَابَ لَكُمُ الشُّغْلُ بالله اسْتَحْلَيْتُم ذِكْرَهُ ومُنَاجَاتَهُ وبدأتم تَذُوقون كَأسَ: «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي في الصَّلاةِ[1]»، وكَأسَ «أرِحْنَا بِها يا بِلالُ[2]»، ولا تَتَذَوَّقُ الأرْوَاحُ في الدنيا شيئًا ألَذَّ مِن لَذَّةِ المُنَاجَاةِ إذا فُتِحَ لك بَابُها، فهي لَذَّةٌ لا تُسَاوِيها لذَّةٌ مِن المآكِلِ والمشارِبِ والمطاعِمِ والملابِسِ.

(فاشْتَغِلْ بِرَبِّكْ) : فَالشُّغْلُ بالله طَيِّبٌ؛ وإذا كان هَمُّكَ بِهِ تَوَلَّى كِفَايَتَكَ كُلَّ همٍّ في الدُّنيَا وعِنْدَ الموتِ وفي البَرْزَخِ والآخِرَةِ .

فما قَالَبُ الشُّغْلِ بالله؟ قال :

(الَّذِي عَلَيكْ) : مِن الرِّضَا، والصَّبْرِ، والشُّكْرِ، والذِّكْرِ، والخَوفِ، والرَّجَاءِ ومِنَ الطَّهَارَةِ، والصَّلاةِ، والصِّيامِ، والزَّكَاةِ، والحَجِّ، وصِلَةِ الرَّحِمِ، وبِرِّ الوالدين، والإحسانِ إلى الجيران، والنَّصِيحَةِ، والتَعَلُّمِ والتَّعْلِيمِ - هَذا قَالَبُ الشُّغْلِ بالله -

أما قَلْبُ الشُّغْلِ بالله فَيَصْعُبُ التَّعبِيرُ عَنْهُ، فَهُوَ شَأنٌ لا يُبْقِي فيك بَقِيَّةً، ولا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أنس رضي الله عنه، كتاب النكاح (٢/ ١٧٤/ ٢٦٧٦) الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١١ - ١٩٩٠

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب سلمان بن خالد الخزاعي (٦/ ٢٧٧/ ٦٢١٥) دار النشر: مكتبة ابن تيمية .

يَتْرُكُ فِيك ذرَّةً لِغَيرِه، فتكُونُ كُلُّكَ لَهُ، ويَكُونُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ بَأسْمائِهِ وصِفَاتِهِ كلِّهَا لَكَ، فمَن يَقْدِرُ أنْ يَتكلَّمَ عَن قَلْبِ الشُّغْل بالله؟!، لكن خُذْ قَالَبَهُ وهو .. الذي عليك

(فِي فَرْضِ الحَقِيْقَةْ) : وَفَرْضُ الحَقِيقَةِ أنْ لا تَنْقَطِعَ بِشَيءٍ مِنَ الخَلِيْقَةِ.

(والشَّرْعِ المَصُونْ) : وهو المعراجُ لِنَيلِ هَذِهِ الحقيقة؛ إذ الاسْتِمْسَاكُ بالشَّرْعِ استمساكٌ بعُروَةٍ وَثِيْقَةٍ، يقومُ بِهِ الثَّبَاتُ على أقومِ الطَّرِيْقَةِ، ويُوْصِلُ ذلك إلى ظُهُورِ أنوارِ الحَقِيقة؛ وهو: أنْ لا تَنْقَطِعَ بِشَيءٍ مِن الخليقة عَن الخالِق جَلَّجَلَالُهُ وتعالى في عُلاه، فتكُونَ مُنزَّهَ القَلْبِ عَن التَّعَلُّقِ بِمَن دُونَه، مَثبُوتاً في دِيوانِ مَن يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ، فنِعْمَ الشُّغْلُ بالله.

(والشَّرْعِ المَصُونْ) : شَرْعٌ شَرَعَه اللهُ لَكَ، أَنزَلَهُ على مُصْطَفَاهُ، فبلَّغه محمَّدُ ابن عبدالله، وهو شَرْعٌ مَصُونٌ مَحْمِيٌّ مَحفُوظٌ؛ ومَن اتصل بهذا الشرع وقام بِحَقِّهِ مَصُونٌ بِصَونِ الشَّرعِ الشَّرِيف على قَدْرِ ما يَصُونُ، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لابن عباسٍ: «اِحْفَظِ الله يَحْفَظْكَ[1]»

وهذا الشرعُ المصونُ لا تتناوَلُه الأهواءُ، ولا أيدي العَبَثِ، ولا يَستطيعُ مَاحٍ أن يَمْحُوَهُ، ولا يستطيعُ مُعَادٍ أن يُفْنِيَه، قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ : «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أمَّتِي ظَاهِرِين على الحقِّ، لا يَضُرُّهُم مَن ناوَأهم[2]»

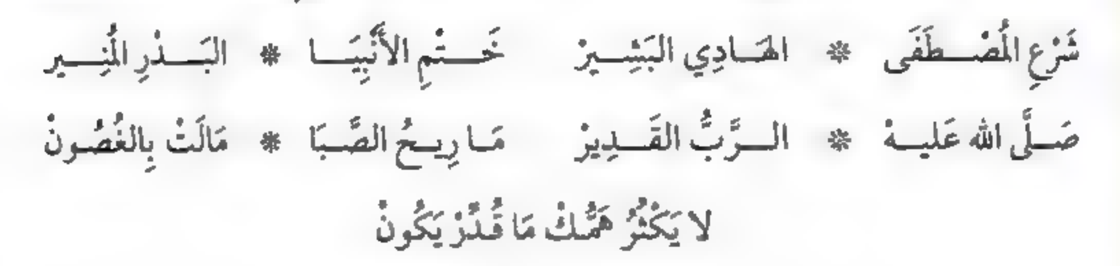
(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس، مسند عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب (٥/ ١٩/ ٢٨٠٣).

(٢) أخرجه أبو داوود في سننه عن عمران بن حصين، باب في دوام الجهاد (٣/ ٤/ ٢٤٨٤) وأخرجه مسلم عن ثوبان (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢٠) بلفظ «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» وفي رواية الطبراني (٨/ ١٤٥/ ٧٦٤٣) «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ يَغْزُوهُمْ، قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ نَاوَأَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ».

وكم حَاوَلُوا إطفاءَ نُورَ الشَّرع، وتغييرِ معَالِمِهِ على مدى القرون، وَهُوَ اليوم أوضَحُ مَا يَكُونُ، وأجْلَى ما يَكُونُ، وأقوى ما يَكُونُ، قَائِمٌ بالله وبِرَسُولِهِ .

وقدْ لَعِبَتِ الأهواءُ بكثيرٍ مِن النَّاس فنَسَبُوا إلى الشَّرْعِ مَا ليس فيه، فأينَ هُمُ الآن وأينَ هِي أفكارُهم ؟

فهو شرعٌ مصونٌ بصيانة الحقِّ لحبيبه محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَوَجَاهَةِ الأمينِ المأمونِ لَدَى الرَّبِّ الذي يَقُولُ للشَّيءِ كُنْ فيكونُ .



شَرْعِ المُصْطَفَى * الهَادِي البَشِيرْ ... خَتْمِ الأَنْبِيَا * البَدْرِ المُنِير

صَلَّى اللهُ عَلَيهْ * الرَّبُّ القَدِيرْ ... مَا رِيحُ الصَّبَا * مَالَتْ بِالغُصُونْ

لا يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

(شَرْعِ المُصْطَفَى) : نَسَبَ الشَّرعَ إليه؛ لأنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَلَقِّيهِ ومُؤَدِّيهِ، ومُظْهِرُهُ وبَادِيه، ومُؤَسِّسُهُ وبَانيه، وأعلى القُدْوَةِ فِيه؛ فقال: (شَرْعُ المُصْطَفَى).

وقد نُسِبَ الدِّينُ والشَّرْعُ كُلُّهُ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهو شَرْعُ المصطفى، الذي اصْطَفَاه الله بأعلى الاصْطِفاء.

فكلُّ مُصطفىً غيرُه فهو دُونَه، وكلُّ مجتبىً سِواه فهو تحتَه، فهو أصْفى جميعِ الأصْفياءِ .

وجميعُ الأنبياء مِن آدمَ عليه السَّلامُ إلى سيِّدِنا عيسى عليهِ السَّلامُ قد أُخِذَتْ عليهِم المواثيقُ والعُهُودُ أنْ يُؤمِنُوا بِمُحمَّدٍ ويَتَّبِعُوهُ ويَنْصُرُوهُ إذا بُعِثَ في أزمِنَتِهِم، وأكَّدَ اللهُ على تِلكَ العُهودِ والمواثيق إعلاناً بشأن محمَّدٍ وقدرِهِ العالي لَديه جَلَّ جَلَالُهُ وتعالى في علاه؛ فقال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ

ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨١ – ٨٣]

ثم قال له أعْلِنها يا محمَّد وقُلْ لِأتْباعِ الأنبِياءِ مِنْ قَبْلِكَ : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٤ – ٨٥]

فما هَذه العظَمَةُ؟!

هكذا يصنع الله مِن أجْلِ مُحَمَّدٍ؛ لمكانَتِهِ لَدَيهِ، ورَفِيعِ رُتْبَته عِنْدَه، وعَظَمَةِ محبَّتِهِ لَهُ؛ فما أحبَّ ربُّكم أحَداً كما أحبَّ محمَّداً، ولقد أصابَ الصحابَةُ أنْ لَـمْ يُحِبُّوا أحَداً كما أحبُّوا محمَّداً، ولم يُعظِّمُوا أحَدًا كما عَظَّمُوا مُحمَّدًا؛ فإنَّما تَخَلَّقُوا بخُلُقِ الإلَهِ، عليهم رِضْوَانُ الله .

فلا دَينَ صَحيحٌ على وَجْهِ الأرْضِ قَطُّ إلا الإسلامَ، وكُلُّ دِيْنٍ غَيرُهُ بَاطِلٌ وضَلالٌ وكُفْرٌ، فالإسلامُ دِينُ آدَمَ، ودِيْنُ شِيْثِ بنِ آدَمَ، ودِينُ إدريسَ، ونوحٍ، وهودٍ، وصَالِحٍ، وإبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ ويعقوبَ، ويوسُفَ، والأسباطِ، وسليمانَ، وداوودَ، وزكريا ومُوسى ويحيى وعيسى، وجميعِ النَّبِيِّين .

ومِن أغربِ الغَرائِبِ أنَّ أُناساً بغيرِ وَعْيٍ مِنْ عَقْلٍ ودينٍ، يريدون أن يجعَلُوا

لله ديناً غير الذي اختارَهُ، ويُرِيدُونَ أنْ يُلْزِمُوا اللهَ بِأنْ يُدْخِلَ أصْحَابَ الأديانِ الأُخرَى إلى جَنَّتِهِ! فما هَذا الفِكْرُ ؟

ليستِ الجنة مُلْكَ أحدٍ مِن المخلوقين حتى يتحَكَّمَ فيها هذا المخلوق، بل الحُكْمُ فيها لله ربِّ العالمين، وقد حَكَمَ أنْ لا يدخُلَها إلا المؤمنون .

أمَّا عَن التَّسَامُحِ وحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ أهلِ الأدْيَانِ الأخرى فدِينُ الله أوسَعُ مِن عَقْلِكَ، فقد علَّمنا أنْ نُحْسِنَ التَّعَامُلَ مَعَ أهْلِ الأديَانِ الأُخْرَى وإنْ كَانَتْ بَاطِلَةً، بَلْ عَلَّمَنا أنْ نُحْسِنَ التَّعَامُلَ حتى مَعَ المحاربين وقتَ الحَرْبِ.

أتُرِيدُ حُسْنَ الجِوار؟ أتريدُ الأمانَةَ؟ أتريدُ الصِّدقَ؟ أتريدُ الوَفَاء بالعُهُودِ؟

هذا موجودٌ في دينِ الله تعالى، فقَدَ عَاهَدَ رسُولُ الله المشركين وَوَفَى، وعاهَدَ يَهُودَ ووَفَى، وما نَقَضَ على أحدٍ عَهدًا، وقاتلوه فَأَحْسَنَ إلى أَسَراهم حتى استَحَى الأسرى مِن ذلك الإحسانِ، فهَاتِ لي في زَمَنِ التَقَدُّمِ دَوْلةً مُتَقَدِّمَةً استحى أسْرَاها مِن إحْسَانِها .

حُسْنُ التَّعَامُلِ في مَنْهَجِ الخَالق لجميعِ الخَلْقِ، ولكن ليس مِن طريق اللعب عَلى الأديانِ، ولا مِن طريقِ إحْقَاقِ البَاطِلِ وإبْطَالِ الحَقِّ؛ فالحَقُّ حَقٌّ والباطلُ باطِلٌ، ولا خَلْطَ في هذا.

وسيأتي زَمَانٌ ينقَسِمُ فيه أهلُ هَذا العَالَمِ إلى فُسطاطين؛ فُسطاطِ إيمانٍ



خالصٍ لا نِفَاقَ فيه، وفُسْطاطِ كُفرٍ خَالصٍ لا إيمان فيه[1]، وستَذْهَبُ كُلُّ هَٰذِهِ الألاعيبُ والأباطيلُ في الدُّنيا، أما في الآخِرَةِ فكُلُّ شيءٍ واضِحٍ وبيِّنٍ، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٧]

كانَ مَعَ المُفَكِّرِ الفُلاني أو الفيلسوفِ الفُلاني أو الحِزبِ الفلاني ولم يكنْ مَعَ رسُولِ الله.

(شَرْعِ المُصْطَفَى) : اصطفاهُ الله واجتباهُ من بين جميع خَلْقِهِ، جَاء في صحيح الإمام مُسلِمٍ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[2] وجاء أيضاً في رواية أخرى: «ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ»[3].

(شَرْعِ المصْطَفَى) : الذي ابتدأ اللهُ خَلْقَ الوُجُودِ بإيجادِ نُورِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(شَرْعِ المصْطَفَى) : الذي كَتَبَ الله اسْمَهُ بِجَنْبِ اسمِهِ عَلى قَوائِمِ العَرْشِ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبدالله بن عمر (٤/ ٥١٣/ ٨٤٤١) الناشر: دار الكتب العلمية١٩٩٠، وأبو داوود (٤/ ٩٤/ ٤٢٤٢)

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عَن وائِلة بن الأسقع، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٦) الناشر: دار إحياء التراث العربي

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبدالله بن عمر، باب ذكر فضائل قريش (٤/ ٨٣/ ٦٩٥٣) الناشر: دار الكتب العلمية

فكُلُّ قَائِمَةٍ مِن قَوائِمِ العَرْشِ مكتوبٌ عليها : (لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله)[1]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

فأفْضَلُ المُرسلين أولي العَزْمِ، وأفضلُ أولي العَزْمِ محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ولم يجعلْ جبَّارُ السَّماوَاتِ والأرضِ المقامَ المحمُودَ لِغَيرِ مُحَمَّدٍ، ولا يَفْتَحُ الشَّفَاعَةَ يَومَ القِيامَةِ إلا بِيَدِ مُحَمَّدٍ.

وقد سَعِدَتْ أُمَّتُهُ بِسَعَادَتِه؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وهُمْ أُمَّةُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد اصطفاهم بفضلٍ مِن عِنْدِهِ بِوَاسِطَةِ حبيبِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا باكتسابٍ مِنْهُم.

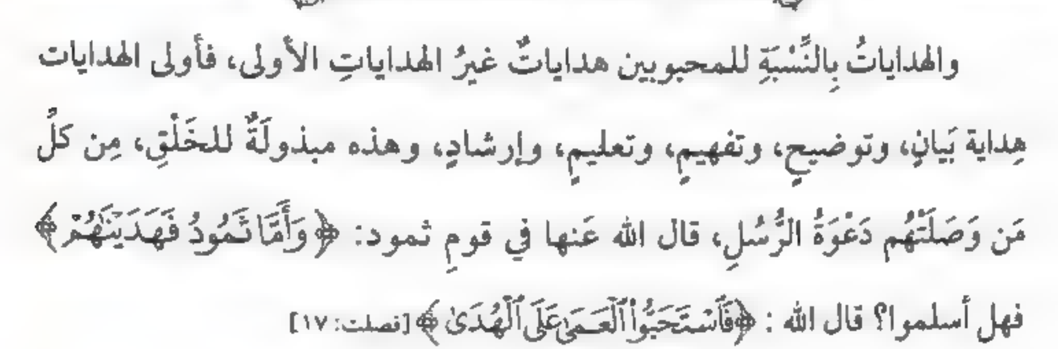
قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2]

وقد أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ : (إِنَّ الجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أَنتَ، وَعَلَى

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة عن عمر بن الخطاب (٥/ ٤٨٩) بلفظ «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ، قَالَ: يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ! وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَخْلُقْهُ؟ قَالَ: لِأَنَّكَ يَا رَبِّ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ وَإِذْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ».، قال البيهقي تَفَرَّدَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ عَنْهُ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل (٢/ ٥/ ٨٩٦) نشر: دار طوق النجاة.



والهداياتُ بِالنِّسْبَةِ للمحبوبين هداياتٌ غيرُ الهداياتِ الأولى، فأولى الهدايات هِداية بَيانٍ، وتوضيحٍ، وتفهيمٍ، وتعليمٍ، وإرشادٍ، وهذه مبذولةٌ للخَلْقِ، مِن كلِّ مَن وَصَلَتْهُم دَعْوَةُ الرُّسُلِ، قال الله عَنها في قومِ ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فهل أسلموا؟ قال الله : ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]

فمعنى الهداية هُنا البيانُ لهم عَلى لِسَانِ صَالِحٍ عليه السلام، فما آمَنَ مَعَ صَالِحٍ إلا القليلُ، وأما الأكثرون فقد كَفَرُوا واستحبُّوا العَمَى على الهُدَى .

وكلُّ مكلَّفٍ على ظَهْرِ الأرضِ مِن الإِنْسِ والجِنِّ بَلَغَتْهُ دعوةُ محمَّدٍ فَلَمْ يُؤْمِنْ أنَّها الحقُّ فهو الأعمى، وإن كان مخترعًا أو صَانعًا أو رئيسًا أو وزيرًا أو ما إلى ذلك، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] والذي عَلِمَ أنَّ مَا جاء به هو الحقُّ هو البصيرُ، ولو كان أعمى البَصَر، قَالَ تَعَالَى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال تَعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هادٍ في أعلى مراتب الهداية قال الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]

وجاء هنا بلام التوكيد في قَوْلِهِ (لَتَهْدِي)

وقد قال الله عمَّنْ تقدَّم قبلَهُ مِن الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا



لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]

ولكن إذا جَاءَهُم في زمانِهِم وَجَبَ عليهم أن يتَّبِعُوه فهو هَادِي الهُدَاةِ.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لسيدنا عمر وقد أتاه بكتابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَصَبْتُ كِتَابًا حَسَنًا مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[1]

وقد جمعَ اللهُ الأنبياءَ ليلَةَ الإسرَاءِ والمعراجِ فَصَلُّوا خلفَه؛ فكانوا مأمومين وهو الإمام. قال الإمام الحداد:

وَصَلَّى وَصَـلَّوا خَلْفَهُ فإذا هو الـــ ـمقدَّمُ وهو الرأسُ لأهلِ الرِّئَاسَةِ

اللهم صَلِّ عليه واجمعنا به، وأَرِنَا وأَشْهِدْنا مجْمَعَ الأنبياءِ في حضرته، لِنَرى كيفَ يكونُ نوحٌ في حَضْرَتِهِ، وكيف يَكُونُ إبراهيمُ، وكيف يَكُونُ مُوسى، وكيفَ يَكُونُ عِيسى، وسَيُشَاهَدُ شيءٌ مِن هَذا في الأرض للذين يُدْرِكُونَ زَمَنَ سيِّدِنا عيسى على ظهرِ الأرض عندما يخْرُجُ، كيف يَذْكُرُ محمَّدًا، وكيف يقتدي به، وكيف يَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِ، وكيف يزورُ قبرَهُ الشَّريفَ، وقد جاء في الحديث: «لَيَهْبِطَنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا وَلَيَسْلُكَنَّ فَجًّا حَاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في سننه عن جابر بن عبدالله (٢٣/ ٣٤٩/ ١٥١٥٦) الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م



بِبِنْتِهِمَا وَلَيَأْتِيَنَّ قَبْرِي حَتَّى يُسَلِّمَ وَلَأَرُدَّنَّ عَلَيْهِ»[1] .

فهم يُعَظِّمُونَهُ بتعظِيمِ الله لهُ، ولأنَّهُم أعْرَفُ بالله فهم أعْرَفُ مِنَّا بالنبي محمَّد، ولا يستطيعُ أحدٌ مِنَّا أنْ يَعْرِفَ النبيَّ محمَّدًا كَمِثلِ الأنبياءِ.

(الهَادِي البَشِيرُ) : الذي جَاء بالبِشَارَةِ مِن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فبَشَّرَ عَن الله عِبَادَهُ بِشاراتٍ واسعاتٍ كثيراتٍ كبيراتٍ، ولم يَزَلْ مُبَشِّرَاً، ولم يَزَلْ بالنِعَمِ والمُنْعِمِ مُذَكِّراً، ولم يَزَلْ عَن حَقَائِقِ البَشَائِرِ مُعَبِّرَاً، فهو البشيرُ الأعلى عَن الله جَلَّ وَعَلَا، حتى إذا نَازَلَ الخَلائِقَ في المواقِفِ الكُبرى يَأسٌ كان هو المُبَشِّرُ والقَائِلُ: «وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا»[2] صلواتُ ربي وسلامُه عليه .

ولم يَزَلْ مِفتَاحُ البشائر مِن حَضْرَتِهِ صَادرًا و واصلاً مِن ذاتِهِ مُباشَرَةً، أو عَن مَن يَنُوبُ ، فيُبَشِّرُون بِهِ عَنْهُ عَن الله جَلَّ جَلَالُهُ وتعالى في علاه بأنواعِ البَشَائِرِ.

وقد أمَرَ اللهُ نبيَّهُ مُحَمَّدًا أن يَحْمِلَ البَشَائِرَ للمُبَشَّرِين، فقال له: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [يونس: ٢] وقَالَ له : ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]

وقد اشْتَهَرَ في سِيرَتِهِ تبشيرُ أناسٍ مخصُوصِين مُعَيَّنِينَ بأسمائِهم بالجنة، وكان مِن أعلاهُم العَشَرَةُ الذين اشْتَهَرَ خَبَرُ تَبْشِيرِهم بالجَنَّةِ في حديثٍ واحِدٍ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أم حبيبة، باب ذكر نبي الله وروحه عيسى (٢/ ٦٥١/ ٤١٦٢) الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠

(٢) أخرجه الدارمي في سننه عن أنس، باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم (١/ ١٩٦/ ٤٩) الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م



وهم سادتنا أبوبكر الصِّديقِ وعمرُ بن الخطاب وعثمانُ بن عفان وعليٌّ بن أبي طالب وسعدُ بن أبي وقاص وسعيدُ بن زيد وعبدُالرحمن بن عوف وطلحةُ بن عبيد الله وأبو عبيدةُ بن الجراح والزبيرُ بن العوام[1]، فكان هؤلاء العشَرَةُ المبشرون بأعيانِهم بالجنة مِن خيارِ الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وقد بشَّرَ غيرُهم بالجنَّةِ ومِنهم السيدة خديجة فقد جاء في صحيحِ البُخاري وغيره مِن كُتب السُّنَنِ، عن جبريل أنَّه قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ[2] "

ولم يَزَلْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَشِّرُ بالعُمومِ والخُصوصِ لأماكِنَ ولأُناسٍ ولِقبائِلَ ولأفرادٍ مُعَيَّنِين، بِمختلفٍ مِن العَطَاءِ والفَضْلِ الربَّاني في الدنيا وفي الآخِرَةِ.

وقد جاء قومٌ مِن بني تميم إلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لهم :" اقبَلُوا البُشرى يا بني تميم" قالوا: بَشَّرْتَنَا فأَعْطِنَا، فدَخَلَ نَاسٌ مِن أهلِ اليمنِ فقال لهم :" اِقبَلُوا البُشرى يا أهلَ اليَمَنِ إذْ لم يَقبَلْها بَنُو تميمٍ" قَالوا: قَبِلْنَا يا رَسُول الله[3].

(١) أخرج ابن حبان في صحيحه عن عبدالرحمن بن عوف، باب ذكر إثبات الجنة لأبي عبيدة (١٥/ ٤٦٣/ ٧٠٠٢) ما نصه : «عَشَرَةٌ فِي الجَنَّةِ: أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَابْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ»

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم (٥/ ٣٩/ ٣٨٢٠)

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين (٤/ ١٠٥/ ٣١٩١) دار طوق النجاة.



فهو البشيرُ كثيرُ التَّبْشِيرِ لـمَن أقبلَ وتوجَّه، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١]

فكلُّ ما كانَ مِن بِشاراتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ تحتَ هذا الأمْرِ الربَّاني الإلهي مِنْهُ أن يُبَشِّرَ، ثم بَقِيَتْ آثارُ هذا التَّبْشِيرِ لكلِّ مَنِ اتَّصَفَ بِتِلكَ الأوصافِ التي أمَرَه اللهُ أنْ يُبَشِّرَ أهْلَها بِهَا على مَدَى القُرون مِن بعد حياتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما بَثَّ في سُنَّتِهِ مِن الثَّناءِ عليهم والتنويهِ بهم، ثُمَّ ما يحصُلُ بين أرواحِهم ورُوحانيَّتِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ورؤيته في المنامِ أو اليقظةِ، فيُسْبِلُ ويُرْسِلُ ويُغْدِقُ عليهِمُ البَشائِرَ صَلواتُ ربي وسلامُه عليه.

قال الإمامُ الشافعيُّ: رأيتُ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لِي: ((بشِّرْ أحمدَ بالجنَّةِ على بَلوى تُصِيبه))، فبَعَثَ رَسُولاً إلى عندِ الإمام أحمدَ بن حنبل، يقولُ له: إن أبا عبدالله محمَّدَ بن إدريس الشَّافعي يُقْرِئُكَ السَّلامَ، ويقولُ لك : إنَّه رَأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: ((بَشِّرْ أحمدَ بالجنَّةِ على بلوى تُصِيبُهُ))، فقال: الله المستعانُ، فأرادَ أن يعطيَ مُكافأةً للذي جاءَهُ بهذه البِشارة، فلم يكنْ معَهُ إلا قميصَه الذي كانَ عليه، فنزَعَ قميصَهُ وأعطاهُ إيّاهُ، فحَمَلَهُ وعاد إلى الإمامِ الشَّافعي، فقال له: هل بلَّغْتَه؟، قال: نعم، قال : فماذا أعْطَاك؟، قال: أعطاني هذا القميصَ، قال: مِن صندوقِهِ أم مِن على جَسَدِهِ؟، قال: بَلْ مِن على جَسَدِهِ، قال: فلا نَفْجَعكَ بقميصِكَ؛ ولكن هل تأذَنُ لنا أن نَغْسِلَهُ فنُبْقِي الماءَ عِندنا، وهذا مِن تَبَرُّكِ الأئمةِ ببعضِهِم البَعض، فغَسَلَ القميصَ وأبقى الماء عِنْدَهُ عليه رضوان الله



تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولم تَزَلْ هَكَذَا البَشَائِرُ تتوالى؛ بل لا يكادُ يقومُ أحدٌ مِن أُمَّتِهِ بصحيحِ وخَالِصِ خِدْمةٍ للشَّرْعِ تنفعُ النَّاسَ إلا ونَازَلَتْهُ مِنه البشائرُ، مرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

ومَا مِن بِشارةٍ بعد ذلك في الآخرة إلا وهو مِفتَاحُها؛ إذ لا يَشْفعُ شفيعٌ حتى يفتحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَابَ الشَّفاعة، ولا يَدخُلُ داخِلٌ الجنَّةَ حتى يَدْخُلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فهو البشير بأسنى المَعَاني وأوسعِها عَن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فبُشْرى لنا بالبشير النذير، والسِّرَاجِ المنير، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]

فنِعم المُبَشِّرُ هُو.

ولما كان حَامِلَ البِشَارَةِ الكُبرى، والبَشَائِرَ العُظمى، بَشَّرَ به النبيون مِن قَبْل؛ قال سيِّدُنا عيسى بن مريم في تَلْخِيصِ رِسَالَتِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، أي يا عيسى، إذا كانَ محمَّدٌ مِفتاحَ البَشَائِرِ فأعلى بَشَائِرِكَ أنْ تُبَشِّرَ بِهِ.

ولما استعرضَ البشائرَ صَحَابِيُّه الذي كانَ في حراستِهِ وخِدمتِهِ، عند ما قال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سل ما تشاء"، قال له: أسألُكَ مُرافَقَتَكَ في



الجنة"[1]؛ فأنزل الله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

ومِن هُنا نَعْلَمُ أنَّ المَعِيَّةَ أعظمُ بِشارَةٍ؛ فإنه تعالى لم يَذْكُرْ في هذه الآيةِ الكريمةِ شيئًا مِن ثوابِ الإيمانِ والعَمَلِ الصالح مِنْ أنواعِ النعيم في الأخِرَة غيرَ المَعِيَّةِ.

إِذَنْ فالمعيَّةُ هي الأصلُ والأساسُ والرأسُ، وبقيَّةُ النِّعَمِ مُنطويةٌ فيها.

(خَتْمُ الأنبِيَا) : وهي رُتبةٌ خَصَّ الله بها محمَّداً دون مَن سواه مِن البرية، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]

فهو الختمُ للنُّبُوَّةِ، المتبوِّئُ أعلى ذُرَاها، وبه كانتْ بِداية النُّبُوَّةِ وكان خَتْمُها، فلا نَبِيَّ بعدَهُ أبداً، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ»[2] فَعَقِبَ جميعَ الأنبياءِ، وبَقِي شَرْعُهُ إلى آخِرِ الزَّمَانِ.

قال الإمامُ الحدَّادُ :

بـه خـتم الله النبـوة وابتـدأ فللـه مِـن خـتمٍ بـه وبدايَـةِ

(خَتْمُ الأنبِيَا) : الختمُ بِمَنْعِ حُدُوثِ نُبُوَّةٍ بعدَ بروز نُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي، باب فضلِ السجود والحث عليه (١/ ٣٥٣/ ٤٨٩) الناشر: دار إحياء التراث العربي.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم عن أبيه، باب قوله تعالى (من بعدي اسمه أحمد) (٦/ ١٠٥/ ٤٨٩٦) دار طوق النجاة.

في عَالم الشَّهادَةِ، إلى أن تقومَ السَّاعَةُ، وقد كان في عَالم الغيبِ خَتمًا للأنبياء وبِدَايَةً، جاء في الحديثِ الصحيحِ عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنِّي عِنْدَ الله مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ»[1] لم يُنْفَخُ فيهِ الرُّوحُ بَعْدُ.

فهو متبوِئٌ ذِروَةَ مَعاني حَقِيقَةِ خَتْمِ النُّبُوَّةِ بِرُوحِهِ الكريمة، وأنوارِهِ العَظِيمة، وآدمُ لم يُنْفَخْ فيه الرُّوح بعدُ.

والارتقاء في النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ إلى أعلى مَعاني ذُرَاها يكون خَتماً لما وراءه، وهذا له دونَ مَن سِواه مِن أهلِ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ صلواتُ الله وسلامه عليه، فمهما ارتقوا فهُم كما قال البوصيري:

وكلُّهــم مِــن رســولِ الله مُلْـتَمِسٌ   غَرفاً من البحر أو رشْفاً من الدِّيَمِ

وواقفــون لديــه عنــد حَــدِّهِم   مِن نُقطَةِ العِلْمِ أو مِن شَكْلَةِ الحِكَمِ

(خَتْمُ الأَنْبِيَا): أعلاهم رُتْبَةً وقَدْراً ومَنْزِلَةً، وآخِرُهُم في البَعْثِ، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الخَلْقِ، وَآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ»[2].

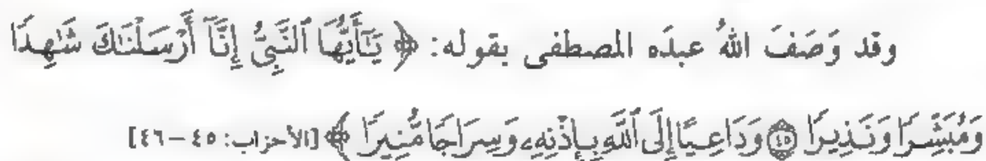
ولذا كانت دَعْوَى النُّبُوَّةِ مِن بعدِهِ كُفرٌ وخروجٌ عن الملة؛ فلا نُبُوَّةَ بعده، وإذا نَزَلَ سيِّدُنا عيسى بن مريم على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام، رسولُ الله ونبيُّه، يكونُ على قدَمِ المتابعة للنبي محمَّدٍ، عَاملاً بشرعِهِ، وسنَّتِهِ، ولا يُوحَى إليه بِشَرْعٍ جديد، وإن كانَ يُوحى إليه في بعض الوقائعِ والأحوالِ والحوادثِ حتى

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن العرباض بن سارية (١٤/ ٣١٢/ ٦٤٠٤) الناشر: مؤسسة الرسالة

(2) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين عن أبي هريرة (٤/ ٣٤/ ٢٦٦٢) الناشر: مؤسسة الرسالة.

وقد وَصَفَ اللهُ عبدَه المصطفى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا



وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]

فيُستَعَارُ اسمُ القَمَرِ، واسمُ البدر واسمُ الشمس، لما كان مُنِيراً في شُؤُونِهِ المعنوية، وأمورِهِ الغيبية، وأحوالِهِ الرُّوحِيَّةِ، فاستُعِيرَ لفظُ البدر للنُّورِ الذي جعله الله أصلاً في الوجودِ كلِّه، والنُّورِ الذي جعلَ الله منه ابتكارَ واختراعَ وإحداثَ وإبرازَ كلِّ نُورٍ؛ فهو نُورُ الأنوار، أوّلُ مَا خَلَقَ الله في البرية، وبه استنار قَلْبُ كُلِّ مَن نوَّر الله قلبَهُ؛ مِن ملَكٍ وإنسٍ وجنٍّ في جميع الوجود، بإيمانهم بالله ومَعرفتهم به، وبه استنارت العقولُ بالدلالَةِ والإرشادِ، واستنارَتِ القُلوب بالتَّصْفِيَةِ والتَّنْقِيَةِ والعِرفان، واستنارت الأرواح بالوَلَعِ والمحبَّةِ، واستنارتِ الأسرارُ بالمشاهَدَةِ.

فقد سمَّاه الله نورًا، وأنزل الله إليه كتاباً سمَّاه نُوراً، وأرسله بدينٍ هو نورٌ للعقولِ والقلوبِ والأفكارِ والبصائرِ قال تعالى : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]

وقَالَ تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٧٤]

هو النور المبين به اهتدينا   هو الداعي إلى أقوى سبيل

وهو النور الذي ينطمِسُ أمَامَهُ كلُّ نورٍ سِواه، وفي هذا قال الإمام الحداد عليه رحمة الله:



محمد الطهر لي نوره طمس كل نور

كما تنطمِسُ وتندرجُ أنوارُ الشُّمُوعِ في نُورِ الكهرباء، وكما تنطمِسُ وتندرجُ أنوار الكهرباء في نور الشمس، وكما تنطمِسُ وتندرِجُ أنوارُ النجوم في نورِ البدر، وينطمِسُ القمرُ ونورُه في نور الشمس، وبذلك مثل الإمام البوصيري لهذه الحقيقة، وقال:

فإنه شَـمْسُ فَضـلٍ هـم كواكبُها ‏ ‏ ‏ يُظْهِرْنَ أنوارَها للنَّاسِ في الظُّلَمِ

وقد فَاضَ نُورُهُ الشَّريفُ الكريمُ مِن عالمِ الباطنِ والرُّوحِ والغيبِ إلى عالم الحسِّ، فكان مِن وَصْفِ الصَّحابَةِ له : كأنَّ وجهَه قِطْعَةُ قَمَر[1]، وقال سيدنا أبو هريرة: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ كأنَّ الشمسَ تجري في وجهِهِ[2]، وقال بعضُ مادحيه: إذا مشى بين أصحابه فكأنَّهُ القَمَرُ بين النُّجُومِ الزُّهْرِ وإذا أقبلَ ليلاً فكأنَّ النَّاس مِن نُورِهِ في أوانِ الظُّهر، وقالت السيدة عائشة: كنتُ أخيطُ ثوباً لي في ظلامِ الليلِ في السَّحرِ في بيتي، فسقطتِ الإبرةُ، وانطفأ المصباحُ، فجعلتُ أتحسَّسُ وأبحثُ بيدي عن الإبرة، فلم أهتدِي إليها، قالت: فأقبلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رَفَعَ سِتَارَةَ البيتِ أشرقَ المكانُ من نُورِ وجهِهِ فرأيتُ الإبرة فرفعتُها، وقلت: ما أضوأَ وجهَك يا رسولَ الله، فقال لها: «الويلُ لمن لا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن كعب بن مالك، باب حديث توبة كعب بن مالك (٤/ ٢١٢٠ ٢٧٦٩) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة (١٤/ ٥٠٦/ ٨٩٤٣) الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

يراني يوم القيامة يا عائشة»، قالتْ: ومَن لا يراك؟!، قال: «مَن ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليّ»[1] صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، صلوات ربي وسلامه عليه.

(البدر المنير) : والعظمةُ في هذه الإنارة.. أنْ تنتهيَ إلى الإعدادِ لحُسنِ الاستقبالِ مِن كلِّ قَلبٍ وبصيرةٍ وروحٍ وسريرةٍ وسرٍّ إلى تَعَرُّفَاتِ المولى الذي يتعرَّفُ بها إلى عباده، فيستنيرُ لهم مَعنى الصِّفاتِ، ومعنى الأسماء، وعظمةِ الذَّاتِ، مِن هذا النور.

فهو بدرٌ منيرٌ إلا أنَّ ما استُعِيرَ اسمُه مِن البدور الحسية تغيب، وهذا لا يغيب، وتُخْسَفُ وهذا لا يخسف، وتَفْنى وهذا لا يَفْنى، فإذا خُسِفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وقُذِفَ بهما في النَّار أو في البَحْرِ ازدادَ إشراقُ هذا النور؛ فالشمس تنتهي، والقمر تنتهي، وهذا النور لا ينتهي.

وبذلك كان يُشِيرُ بعضُ أهل الشِّعرِ إلى ما امتدَّ مِن هذا النور في قلوب

---

(١) ذكره عبدالملك النيسابوري في كتابِ شرف المصطفى بهذا اللفظ (٢/ ١٠٣) وأخرجه الإمام ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣ / ٣١٠) ولفظه: عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت استعرت مِن حفصة بنت رواحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسقطت مني الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتبينت الإبرة من شعاع نور وجهه فَضَحِكْتُ، فقال يا حميراء لم ضَحِكْتِ؟ قلت كان كيت وكيت فنادى بأعلى صوته يا عائشة الويل ثم الويل ثلاثا لمن حُرِمَ النظر إلى هذا الوجه، ما مِن مؤمن ولا كافر إلا ويشتهي أن ينظرَ إلى وجهي اهـ.. وذكره ابن عساكر في تاريخه، باب صفة خلقه ومعرفة خلقه، (٣/ ٣١٠) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

حَكَمَ بعض العلماء على هذا الحديث بالوضع، ولكن قواعد المصطلح لا تساعد عليه، فالأولى الحكم بالضعف فقط وهو الذي ينطق عليه القواعد ويتماشى معها.

ووجوه الأبرارِ الأخيارِ، ويقول:

أمرتقبُ النجومِ مِن السماءِ نجومُ الأرض أبهرُ في الضِّياءِ

فتلك تبينُ وقتاً ثم تخفى وهذه لا تُكَدَّرُ بالخفاء

هدايةُ تلك في ظلمِ الليالي هدايةُ هذه كشف الغطاء

يقول: إنَّ نجومَ الأرضِ أبهرُ مِن نُجُومِ السَّماءِ، ووجه تفضيلِها أنَّ نَجُومَ الأرضِ - ويقصد بهم العَارفين والدَّالِين على الله - تكشفُ الحجاب بينك وبين ربِّ الأربابِ فهي أبهرُ وأجلُّ، وهي آثارٌ مما انتشَرَ مِن نُورِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلوب الصالحين، فهو البدر المنير وهو نور الله الأكبر.

جعلنا الله ممن استنار بهذا النور، وظَفِرَ بالحظِّ الموفور، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

(صَلَّى الله عَليهْ) : الصَّلاةُ مِن الله رحمةٌ ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له صَلواتٌ لا تُحصَى مَعانِيها، ولا تُستَقْصَى بَدائِعُها وعَجَائِبُها بِكُلِّ معنىً أبداً سَرمَداً.

فمِن رحْمَتِهِ تَعَالى على كُلِّ موجُودٍ.. إخْرَاجُهُ مِنْ حَيِّزِ العَدَمِ إلى الوجودِ، ثُمَّ مَا مِن نِعْمةٍ ولا فَضيلةٍ ولا مِنَّةٍ ولا مِنحَةٍ ولا رُتبَةٍ ولا دَرَجةٍ ولا كَمَالٍ ولا فَضلٍ يَنالُ ذَلِكَ الموجودَ إلا وَهُوَ مِنْ رحمة الله جَلَّ جَلَالُهُ.

ورحماتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توزَّعَتْ في البَرَايَا، وعلى قَدْرِهَا كانَتْ أقْدَارُهُم، وعلى عَظَمَتِها كانَ مَنارُهُم، وعلى اتِّسَاعِهَا كَانتِ الرِّفْعَةُ في أطوارِهِم.

إذا عَلِمْتَ ذلك أيقنْتَ أنَّ الرَّحمَنَ لم يُصَلِّ ولنْ يُصَلِّيَ على أحَدٍ [كـ] صَلاتَهُ

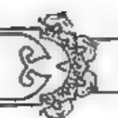
على زَيْنِ الوُجودِ وسيِّدِ الخَلْقِ، ولولا ذلك لما كانَ زَينَ الوُجُودِ ولا سَيِّدَ الخَلق، وإنَّما كانَ أكرمَ الأوَّلِين والآخِرِين على الله؛ لأنَّ اللهَ بِهِ أرْحَمُ، ولأنَّ رَحْمَتَهُ مِن الله مُعظَّمَةٌ جَليلةٌ بَهِيَّةٌ سَنِيَّةٌ شَرِيفَةٌ، كانتَ فَوقَ كُلِّ رَحمَةٍ؛ بل فرَّعَ اللهُ مِنها رحمَتَهُ لمَنْ عَدَاهُ.

وكانَ اختيارُ لَفْظِ الصَّلاةِ دُونَ لَفظِ الرَّحْمَة، لما تحويه الصَّلاةُ مِن إشعارٍ بالتَّعْظِيم، فالصَّلاةُ ليستْ مُطْلَقَ الرَّحمةِ، ولكن رَحْمَةٌ مَقْرُونَةٌ بالتَّعْظِيم، والرحمةُ المقرونةُ بالتَّعظِيمِ والإجلالِ تكُونُ على قَدْرِ مَكَانَةِ الذي يُصَلَّى عليه عِنَد ذي الجلال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولِذا فإنَّ الحَقَّ قَبْلَ أنْ يَأمُرَ المؤمنين بالصَّلاةِ على حَبيبه، أخْبرَ عن نَفسِه أنَّهُ هو الذي يُصَلِّي عليه، وثنَّى بِذِكْرِ مَلائِكَتِهِ المقرَّبين إليه، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]

وأتى بلفظ المُضَارِعِ (يُصَلِّي) لإفادَةِ مَعْنَى الاستمْرَارِ والدَّوَام، والتَّجَدُّدِ بلا انتهاءٍ ولا غايةٍ .

ثُمَّ وجَّهَ الأمْرَ لمن آمَنَ بالصَّلاةِ عليه؛ لما طوى مِن أنْ تَذَكُّرَ الرَّحْمَةِ العُظْمى بالتعظيمِ الأسمَى مِن الله لحبيبه.. سَبَبٌ لمعرفةِ سِرِّ الوُجود، وتخصيصِ الحَقِّ المعبودِ لعبدِه المُصطَفى محمَّدٍ مِن بينِ أجناسِ الوُجودِ، فيكونُ ذلك سَبَبَ إفَاضَةِ الرَّحْمَةِ عليهم. وقد صرَّحَ بذلكِ صَاحِبُ المقامِ المحمُودِ بقوله: «مَن صلى عليَّ مرةً



واحدةً صلَّى الله عليه بها عَشْرَ صلواتٍ[1]».

فكان ذِكْرُنا لَصَلاةِ الرَّحمنِ على حبيبِهِ سَبَباً لِصَلاةِ الحَقِّ عَلَينا، ورحْمَةِ الله إيَّانَا، فما أعجبَ هذا التَّدَاخُلَ والتَّرَابُطَ؛ ما بين أنْ نَطْلُبَ الرَّحْمَةَ على مُحمَّدٍ، وأنْ يَرْحَمَنا رَبُّ محمَّدٍ بِذِكْرِنا لمحمَّدٍ، ورَحمتِهِ التي قُرِنَتْ بالتَّعْظِيمِ لِعَبْدِهِ محمَّدٍ.

وقد أفْصَحَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن عظيمِ نتائِج هذه الصَّلاةِ لمن سَهَّلَتْ له عِنَايَةُ الرحمن الرُّقِيَّ في مَعَارِجِها، فقالَ: «إن أوْلَى النَّاسِ بي يومَ القيامة أكثرُهُم عليَّ صلاةً[2]»، في يومٍ يتطلَّعُ فيه إلى القُربِ مِنْهُ والدُّنُوِّ إليه والالتصاقِ به أكابرُ الأكابرِ مِن أهلِ حضيرَةِ القُدْسِ مِن أنبياءِ الله؛ مِن أولي العَزْمِ مِن الرُّسُلِ فمَن دُونَهم، وجاء في الحديث أنَّ الله أرسَلَ إليه ملكاً في ليلةٍ من الليالي يقول له : إنَّ لَكَ الليلةَ ثَلاثَ دَعَواتٍ مُستجاباتٍ فسَلْ، قال: «فقيل لي: ما الأولى؟، قلتُ: اللهم اغْفِرْ لأمتي، وقيل لي: وما الثانية؟، قلت: اللهم اغْفِرْ لأمَّتِي، فقيل لي: مَا الثالثة؟، فاختبأت الثالثة؛ شفاعةً لأمتي، في يومٍ يلوذُ بي فيه النَّاسُ؛ حتى إبراهيمُ عليه السلام[3]».

---

(١) أخرجه النسائي في سننه عن أنس بن مالك، باب الفضل في الصلاة على النبي (٣/ ٥٠/ ١٢٩٧) الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦

(٢) أخرجه الترمذي في سننه عن عبدالله بن مسعود، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي (١/ ٦١٢/ ٤٨٤) الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م

(٣) أخرجه الإمام مسلم عن أبي بن كعب، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (١/ ٥٦١/ ٨٢٠) في حديث طويل جاء فيه «أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ

فماذا تُنتِجُ الصَّلواتُ على سيِّدِنا محمَّدٍ؟

تنتجُ الفخْرَ الأمجدَ، والمقامَ الأعلى، والشأنَ الأوْحدَ، وتقتضي قُرْبَ النبيين، والقُربَ مِن سَيِّدِهِم في يومِ الدِّينِ، وهل فوقَ ذلك مِن مجدٍ أو شَرَفٍ أو مَعَالٍ بها صَاحِبُها يَتَشرَّفُ؟!

وما في صَلواتنا عليه إلا تَذَكُّرُ أنَّهُ المقدَّمُ والمعَظَّمُ، والمخصوصُ مِن الرَّحْمَنِ بالفَضْلِ الأتمِّ؛ فإنَّه قد صَلَّى هُو عليه فما تُساوي صلواتُنا؟

فما يَكُونُ مِن صَلواتِنا إلا أن يزدادَ يقينُنا وإيمانُنا بتعظيمِ الحقِّ وتَعظيمِ مَن اصطفاهُ وعظَّمَهُ، فننالَ رحماتٍ كثيراتٍ؛ فالعَوَائِدُ علينا عَائِدَاتٌ، والفَوائِدُ إلينا رَاجِعَاتٌ، وهو الغني عنَّا وعن صَلواتنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ولكن تقريرُ معنى الصَّلاةِ عليه التي خصَّهُ الله بها دُونَ البرية، وتَقْريرُ نَيْلِهِ للدَّرَجَةِ العَلِيَّةِ مِن الوسيلةِ والفَضيلةِ والمقامِ المحمودِ، له تأثيرٌ في قَلْبِ الذي يُقَرِّرُ فيه ذلك، بإقامَةِ حقَائِقِ التهليلِ والتَّحْمِيدِ والتَّسْبِيحِ والتَّكبِيرِ لِلْعَلِيِّ الكبيرِ، وبذلكَ يُعْرَفُ مَقامُ مَن اصطفى واجتبى وانتخَبَ مِن بينِ البَرِيَّةِ، وبذلك جَاءنا في حديثِه الصحيح: «[إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي

إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ[1]]، وفي رواية «فإنه لا يَسْأَلُهَا لِي مُؤْمِنٌ فِي الدُّنْيَا إلا كُنْتُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا[2]»

وإن سألتَ الوسيلةَ أو لم تسألها فهي لَهُ، وهُوَ صَاحِبُها، ولكن عِندَ سُؤَالك إيّاها تعلَمُ عَظَمَةَ الذي جَعَلَ الوَسِيلة، والذي جَعَلَ صَاحبَها عَبْدَه محمَّداً، وبذلك تَقْرُبُ مِن رحمة الله.

فدَارَتْ معاني إرادةِ الله الرَّحمةَ على دَائِرَةِ الرَّحمَةِ ومَرْكِزِ الرَّحمة، قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]

ومَا معنى ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ وقد قال: ﴿كَفَرُوا﴾ ؟

نصَّ اللهُ على هذا ليُعْلَمَ أنَّه جَلَّ جَلَالُهُ أدارَ رحمتَهُ وعَذابَهُ على هذه الدائرة، وأنَّ المُتَّصِلَ بها هُو المرحومُ، والمنفصِلَ عنها هو المعذَّبُ المبعودُ المطرودُ، والكُلُّ يُدْرِكُ ذلك؛ حتى الظَّلَمَةُ في القيامَةِ مِن الملحدين والكافرين والبغاةِ المفسدين قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]

سَقَطَتِ الأحزابُ، والحكوماتُ، والاتجاهاتُ، والوزاراتُ، ولم يبقَ إلا محمَّدٌ، فيَعْلَمُ الكُلُّ مَقامَهُ عِندَ ربِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. ويتمنى أن تكونَ له رابطةٌ بهذا النبي، وصلةٌ بهذا المقرَّبِ.

لذلك كانَ الاشتغالُ بالصَّلاةِ عليه مِن أقوى أسبابِ الرِّضْوَانِ، وأعْظَمِ

---

(١) هذا اللفظ ورد في صحيح الإمام مسلم عن عمرو بن العاص، باب القول مثل قول المؤذن (١/ ٢٨٨/ ٣٨٤)

(٢) أخرجه ابن عدي في كتاب نسخة الزبير بن عدي عن ابن عباس، (١/ ٦٥/ ٦٤) [الكتاب مخطوط]

وسائلِ التَّطْهِيرِ عَن مختلَفِ الأدران، وسَبَبِ قَطْعِ العَقباتِ للوصُولِ إلى الرحمن؛ حتى عند استتارِ الشيوخ وقِلَّتِهم في آخِرِ الزَّمَانِ، يَكُونُ إكثارُ الصَّلاةِ عليه السبَّبَ الأقوى للوُصُولِ، ونَيلِ القَبُولِ، وأنْ يأتِيَ الأشياخُ لِصَاحِبِها فيُكَلَّفُوا بفتحِ البَابِ له بأمْرِ الرَّحمنِ جَلَّجَلَالُهُ ، فيتهذبُ بِها، ويتأدَّبُ بها، ويتطهَّرُ بها.

وفي الإشارَةِ إلى أنَّ المهذَّبَ المؤدَّبَ هو الأكثرُ صَلاةً على الحبيبِ المقرَّبِ، جاء الحديثان: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا[1]» و «إن أوْلَى النَّاسِ بي يومَ القيامة أكثرُهُم عليَّ صلاةً[2]»، وفيهما إشارةٌ إلى أنَّ حُسْنَ الخُلُقِ مُرتَبِطٌ بكثرَةِ الصَّلاةِ على رسولِ الله؛ فمَن كان أكثرَ صَلاةً كان أحْسَنَ خُلُقاً؛ لأنَّه يُنَوَّرُ ويُطَهَّرُ بالصَّلاةِ على محمَّدٍ، ولا يَكُونُ أحسنَ خُلُقًا إلا مَن كانَ أكثرَ تعلُّقاً بِجَنَابِ الحبيبِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فيُكْثِرُ الصَّلاةَ والسَّلامَ عليه، فما أعظَمَها وما أعجَبَها وما أجلَّها وما أجمَلَها، وما أحْسَنَ قَطْعَها للسَّبَاسِبِ والعقبَاتِ، وما أحسَنها في الرَّبْطِ بِخَيرِ البريَّاتِ.

وإذا صَدَرتْ الصَّلاةُ مِن المؤمنِ بالتَّعظِيمِ والمحبَّةِ والشَّوقِ، امتثالاً لأمرِ الله مُستشعراً أنَّ اللهَ أمَرَهُ بذلك فامْتَثَلَ الأمْرَ، ثم عَلِمَ أنَّ هذا العَبْدَ المقرَّبَ سَبَبُ وجودِهِ ووُجُودِ الخَلْقِ بأمْرِ الخَالِقِ جَلَّجَلَالُهُ، وسَبَبُ وُصولِ كلِّ رحمةٍ وكلِّ نعْمَةٍ إلى كُلِّ مُنعَمٍ عليه ومرحومٍ، وأنَّهُ أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مُشَفَّعٍ، وهو صَاحِبُ المقامِ

(١) أخرجه الترمذي عن جابر، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٣/ ٤٣٨/ ٢٠١٨) الناشر: دار الغرب الإسلامي، سنة النشر: ١٩٩٨م

(٢) تقدم تخريجه.

المحمود رفعته تلك الصلاة إلى مَقامٍ عَالٍ وكانت نتائِجُهَا كبيرةً .

ولأجل ذلك يُوقِنُ أهلُ الموقفِ أن لا يَصِلُوا إلى شيءٍ مِن رحمة الله إلا مِن هذا البابِ ومِن طريقِ هذا العَبْدِ، ولا يَقْدِرُ على الكلام أكابرُهُم مِن الملائكة والأنبياء، فَضْلاً عَن الذين أُهِينُوا مِن الكَفَرَةِ والجبابِرَةِ المتكبرين، لا يَقْدِرُ أحدٌ منهم على الكلام إلا خيرُ الأنَام، ولا يُنقَلونَ مِن تحتِ الشَّمْسِ في يومِ الأهوالِ العِظامِ وما يكون بعدَ ذلِكَ من فَصْلِ القَضَاءِ، ومِن اسْتِلامِ الكُتُبِ بالأيْمانِ، ومِن رُجْحَانِ الميزان، ومِن المرورِ عَلى الصِّراطِ، ومِن دخولِ الجنَّةِ، إلا بشفاعة صاحب المقام المحمود وبعد خطابِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَعْلَمُوا أنَّ الله إنَّما يُوصِلُ رحماتِهِ إليهم عَبرَ هذا العبدِ المحبوبِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

إذَنْ فالكلُّ يَعْرِفُ قَدْرَ محمَّدٍ يومَ القيامة، لكن مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ أيَّامَ كان في عَالَمِ التَّكلِيفِ في الدُّنيا، هو الذي يرتفع له القَدْرُ هناك، أمَّا مَنْ لم يَعْرِفْ قَدْرَهُ في الدنيا فلا ينفعُهم ذلك بعد أن انتهت الفُرْصَةُ والمهلَةُ التي أمهلهم الله إيَّاها .

ربطنا بهذا النبي، ورزقنا كثرة الصلاة والسلام عليه.

ولقد قالَ له سيِّدُنا أبيُّ بن كَعْبٍ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي؟

ومعنى (كمْ أجعَلُ لك مِن صلاتي) فيه تفسيران :

الأول: أني أستغرِقُ مِن أوقاتي وأصْرِفُ فَراغِي في الصَّلاة عليك.

والثاني: أن صَلواتي عليكَ كثيرةٌ فكمْ مِن ثَوابِها أجعَلُهُ لك وأُهْدِيهِ إليكَ؟

فَقَالَ: مَا شِئْتَ. قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ، قَالَ: مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ، قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا قَالَ: "إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ"[1].

إذا جَعَلتَ لي صلاتَك كلَّها فلا همَّ ولا ذنبَ، وإذا كُفِيَ الإنسانُ همَّهُ في الدنيا انتهتْ مَشَاكِلُ الدُّنيا، وإذا غُفِرَ ذنبُه في الآخرة انتهت مَشَاكِلُ الآخرة فَلا تبقى له مشكلةٌ في الدنيا ولا في الآخِرَةِ.

حتى قال العارفون أنَّ الذي يُكثِرُ الصَّلاةَ عليه بالمحبَّةِ والشَّوقِ والتعظيم ينطبعُ في قلبه صُورَةُ المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وجمالُه الأسنى الذي خَلَقَهُ اللهُ عليه، وما في جميعِ الأكوانِ وسيلةٌ إلى إشراقِ نُورِ الرَّحمَنِ في القَلْبِ كمثْلِ صُورة محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهي أسنى الآياتِ، وإذا كان تصوُّرُ المَسَاجِدِ، والكَعبةِ المشرَّفَةِ، والرَّوضةِ الشريفةِ، يُؤَثِّرُ في التنقِيَةِ والتَّطْهِيرِ، فذاتُ المصطفى فوقَ ذلِكِ كُلِّهِ، وأعلى مِن ذلك كُلِّه، فينقدحُ في قَلْبِ مُكْثِرِ الصَّلاةِ عليه صُورتُهُ البهيَّةُ، وطلعتُهُ الغرَّاء السَنِيَّةُ، ويكونُ مِن أقوى أسبابِ رُؤيتِهِ والاجتماعِ بِهِ في الدنيا والآخرة.

ثم إنَّ الصَّلاةَ عليه تُنسَبُ إلينا ونحن لا نَعْمَلُ شيئًا، وليست مِن عندنا الصلاة؛ إنها نطلبُ مِن ربِّهُ الذي أمَرَنَا بالصَّلاةِ أن يُصَلِّيَ هُو عليه، ولا نستطيع أن

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي بن كعب، (٤/ ٦٣٧/ ٢٤٥٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٨/ ٣٨٩٤)

نفعلَ أكثرَ مِن ذلك فنقول : اللهم صلِّ عليه. فإذا قلنا ذلك : فما الذي فعلناه؟

لكن قال لنا أنتم فقط اطلبوا مِن الذي أمَرَكُمْ بالصَّلاةِ عليه أن يصلي عليه؛ لكي ترتبطوا وتتَّصِلُوا وتَعْرِفُوا القدر والمكانة، وتُعَظِّمُوا هذا الرب ومختارَه بأن تقولوا : اللهم صَلِّ عليه؛ أي: ارحمْهُ رحمةً عاليةً عظيمةً، مقرونةً بالتعظيم، لائقةً بمقامِهِ عِندكَ ومنزِلَتِهِ لَدَيك.

ويتضمن ذلك إعطاءَهُ جميعَ ما طَلبَ في أمَّتِهِ وفي شئونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

قالوا: وإذا صحَّتْ صَلاةُ الله عليك فإنَّ جميعَ أعمالِكَ لا تُساوي ذرةً مِن صَلاة الله عَليك، فلو وَضَعْنَا جميعَ أعمالِكَ الصَّالحةِ في كَفَّةٍ، وجاءت صلاةٌ واحدةٌ مِن الله لَرَجَحَتْ بهذا كلِّه، فكيف إذا كنا نُعْطَى بالصَّلاة عليه إذا قُبِلَتْ عَشْرُ صلواتٍ.

فسيِّئاتُكَ في الميزان يمكن أن تَرْجِحَ بحسناتك لأنَّ سيئاتِكَ وحسناتِكَ مِن فِعْلِكَ، لكن صلاة اللهُ عليك مِن فَعْلِهِ هُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يَرْجِحُ شيءٌ عليها، لأنَّه لا يمكن أن يَرْجِحَ فِعْلُ آدميٍّ على فِعْلِ الله تعالى في عُلاه.

ولذا رَوَى أبو القاسم القشيري في تفسيره[1] أنَّه إذا خَفَّتْ حسناتُ المؤمِنِ يوم القيامة عند الميزان، أخْرَجَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطاقةً كالأنملة فيُلقيها في كفَّةِ الميزان التي فيها الحسناتُ فترجح الحسناتُ، فيقولُ ذلك العبدُ المؤمنُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بأبِي أنتَ وأمِّي ما أحسنَ وجهَك وما أحسَنَ خلقك، فمن

(١) وذكره عنه القرطبي، ورواه الواحدي في البسيط، ذكره عنه الرازي في تفسيره.

أنتَ؟ فيقول أنا نبيُّك محمَّدٌ، وهذه صلاتُك عليَّ وقد وفَّيتُك إيَّاها أحوجَ ما تكونُ إليها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ[1].

كما جاء في الحديث الآخر «إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ شَيْئًا مِنْ هَذَا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ وَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ»[2].

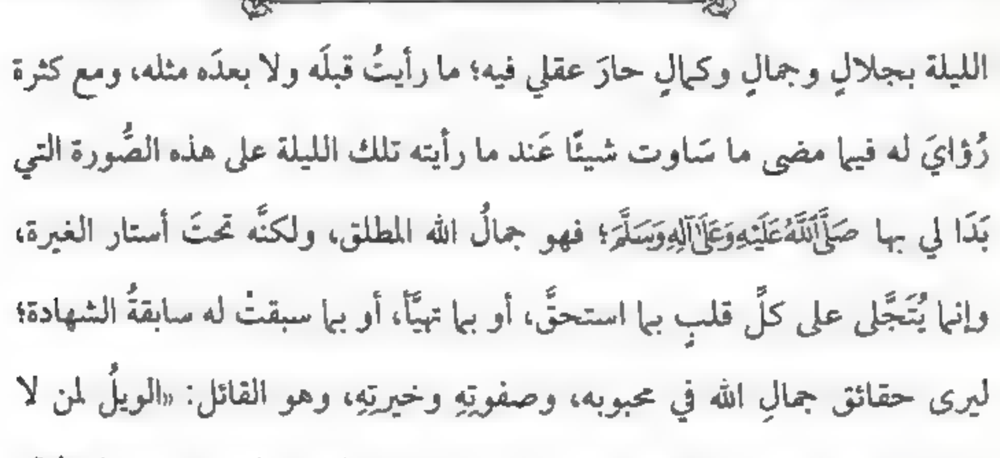
حقِّقْنا اللهم بحقائقها، وارزقنا كثرَةَ الصَّلاة والسَّلامَ على مَن جاءنا بها، خيرِ مَن قالها، وأعظم مَن علَّمها؛ عبدك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وكان بعضُ المكثرين مِن الصلاة عليه كثيرَ الرُّؤية له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يترقَّى في شئونِ رُؤيتِهِ مِن مَرقًى إلى مرقًى أعلى، قال: حتى ألححتُ ليلةً على ربي أن يريني إيَّاهُ كما كانتَ تراهُ عائشةُ وابنتُه فاطمةُ الزَّهراء، قال: فتجلَّى لي تلك

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ١٦٧) وتفسير النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٢٠٢)

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص (٤/ ٢٦٣٩/٣٢١) الناشر: دار الغرب الإسلامي



الليلة بجلالٍ وجمالٍ وكمالٍ حارَ عقلي فيه؛ ما رأيتُ قبلَه ولا بعدَه مثله، ومع كثرة رُؤايَ له فيما مضى ما سَاوت شيئًا عَند ما رأيته تلك الليلة على هذه الصُّورة التي بَدَا لي بها صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فهو جمالُ الله المطلق، ولكنَّه تحتَ أستار الغيرة، وإنما يُتَجَّلى على كلِّ قلبٍ بما استحقَّ، أو بما تهيَّأ، أو بما سبقتْ له سابقةُ الشهادة؛ ليرى حقائق جمالِ الله في محبوبه، وصفوتِهِ وخيرتِهِ، وهو القائل: «الويلُ لمن لا يراني يقوم القيامة»، قالت السيدة عائشة: ومَن لا يراك يوم القيامة يا رسول الله؟، قال: «مَن ذكرتُ عنده فلم يصلِّ علي»[1]، صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(صَلَّى الله عَليهْ) : اسم الجلالة (الله) هو الاسمُ الأجلُّ الأكبرُ الأعظمُ الأعلى الأرفعُ، الذي تنطوي فيه جميعُ الأسماءِ والصِّفَاتِ، وليس للعِبَادِ مَعَهُ إلا التولُّهُ والتعلُّقُ والتشوُّقُ والتولُّعُ بهذا الإله، وشُهُودُ سِرِّ ألوهِيَّتِهِ السَّارِي في جميعِ الوُجُود؛ فهو الاسمُ العَلِيُّ العَظِيمُ الكبيرُ، وهو الاسمُ الذي يَفْتَحُ المؤمِنُ به بابَ رُوحِهِ مِن خلالِ تكريرِه. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]

---

(١)ذكره عبدالملك النيسابوري في كتابِ شرف المصطفى بهذا اللفظ (٢/ ١٠٣) وأخرجه الإمام ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٣١٠) ولفظه: عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت استعرت من حفصة بنت رواحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسقطت مني الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتبينت الإبرة من شعاع نور وجهه فَضَحِكْتُ، فقال يا حميراء لم ضَحِكْتِ؟ قلت كان كيت وكيت فنادى بأعلى صوته يا عائشة الويل ثم الويل ثلاثا لمن حُرِمَ النظر إلى هذا الوجه، ما من مؤمن ولا كافر إلا ويشتهي أن ينظر إلى وجهي اهـ.. وذكره ابن عساكر في تاريخه، باب صفة خلقه ومعرفة خلقه، (٣/ ٣١٠) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

حَكَمَ بعض العلماء على هذا الحديث بالوضع، ولكن قواعد المصطلح لا تساعد عليه، فالأولى الحكم بالضعف فقط وهو الذي ينطق عليه القواعد ويتماشى معها.



وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]

وإنما ينغمسُ في بِحَارِ المحبَّةِ لله والمحبَّةِ مِن الله مَن أكثرَ ذِكْرَ اسْمِ الله، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]

فلا ينبغي أن يحلَّ في قَلْبِكَ شيءٌ مِن الأسماءِ محلَّ هَذا الاسْمِ قَطُّ، بل ينبغي أن يكونَ هذا الاسمُ الأغلبَ على قلبِكَ وفكرِكَ وشعورِكَ وحضورِكَ واستحضارِكَ.

يجبُ أن تتولَّع وتتولَّه بهذا الاسمِ، وأن يكونَ أكثرَ خُطوراً على بالِكَ وذهنِكَ مِن كلِّ اسمٍ.

وامْتَلِئ تَعظيماً وإجلالاً وإكباراً وتقديساً وتسبيحاً له.

وامتلِئ انخفاضاً وتذلُّلاً وإنابةً واعترافاً، واستشعارَ عجزٍ وضَعفٍ وأنتَ تنطق بِهِ، فهو عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلوبُهم مِن أجلِهِ.

فإن كنتَ تُصْبِحُ وتُمسِي واسمُ غيرِهِ غالبٌ عليك فهذا سوءُ أدبٍ، وسوءُ معاملةٍ، وسُوءُ اختيارٍ، وما كانَ يليقُ بِكَ هَذا، فإنَّه هو الذي خَلقَك وأوجدَك،

وإليه مرجعُكَ ومصيرُك، فكيف تذكرُ غيرَهُ أكثرَ مِنه؟ كيف يخطرُ على بالك غير اسمِهِ أكثر؟

لا تُسيءِ الأدبَ مع الرَّبِّ، ولا تُسيءِ الاختيارَ لِنَفْسِكَ، ولا تتجرأ، وليكن هو الغَالِبُ على ذهنك وبالِكَ في جميعِ أحوالِكَ.

وقد سمعتَ ما بَرَزَ إلى عَالم الحسِّ مِن قِبَلِ الخُلفاء الرَّاشِدين – والمُستَكِنُّ في قُلوبِهم أكثرُ – فقد كان يُسْمَعُ كثيراً مِن سيِّدِنا أبِي بكرٍ قَولُهُ :لا إله إلا الله أثناء الكلام، وفي كلِّ أحوالِهِ .

ولا تكادُ تجلسُ مع سيِّدِنا عُمَرَ إلا وتَسْمَعُ مِنه التكبيرَ على لِسَانِهِ؛ مِن أثرِ ما في قلبه، وكان يَغْلُبُ على سيِّدِنَا عُثمان التسبيحُ في أحوالِهِ كلِّها؛ ويغلُبُ على سيِّدِنَا عليٍّ قول : الحمدُ لله في كلِّ أحوالِه، فقلوبهم بالله مولَّعة، وبالإله مولَّهة، وقد ربَّاهُم على ذلكم المربِّي المزكِّي المصطفى محمَّدٍ صَلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه.

فمن رَبَّى قلوبنا؟ وعلى أي شيءٍ تربَّت؟، وبِمَنْ تعلَّقَت؟ وماذا تذكُرُ في ليلِهَا ونهارِهَا وسِرِّهَا وإجهارِهَا؟

يا سامعًا إنْ كانَ لَكَ قَلْبٌ يَسْمَعُ.. تَوَلَّعْ بالإله، واجعلْ ذِكْرَهُ غالِباً عَليكَ، واجعل اسمه هو الخاطر على بالك؛ قياماً وقعوداً، واضطجاعًا ودخولاً وخروجاً، وحركةً وسكوناً، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]

هذا معنى اسم (الله) أمّا ..

(الرَّبُّ) فهو المالك، المربِّي، الموالي للنِّعم، المحيط بالشيء، القدير على كلِّ شيءٍ، فكُلُّهَا تَدْخُلُ في مَعنى الرَّبِّ، فهو ربُّ كُلِّ شَيءٍ ومَلِيكُه، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٧٢]

وفي الفاتحةِ المعظَّمَةِ ذَكَرَ اللهُ رُبُوبِيَّتَهُ للعَالمِين على وجهِ الخُصُوصِ؛ لأنَّ مَن سِواهم دُونَهُم في المنزلة؛ فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: مَالِكِهم، ومدبِّرِهم، ومربِّيهِم، ومُولي النعمِ عليهم، والمحيطِ بهم، والقديرِ عليهم، ويأتي في اللغة العربية لفظُ الرَّبِّ لأكثرَ مِن عَشْرِينَ معنًى.

ولكن تربيته لمحمَّدٍ تميَّزَتْ عنْ كُلِّ تربية؛ ولذلك كُرِّرَ في القُرآنِ الكريمِ لفظُ (رَبُّكَ) عند ذكر كثيرٍ مِن آياته العُظمى وآثارِ هداياته فأضاف وصفه إلى محمَّدٍ، ففي آياتِ الوجودِ والكون يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٥]

وفي ردِّهِ لِعُدوان أبْرَهَةَ وأصحابِهِ والفيلِ الذي كان مَعَهُ قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل: ١] وكانَ ذلِكَ عامَ ولادَتِهِ، قِيلَ أنَّه قدْ وُلِدَ، وقيل أنَّهُ وُلِدَ بعدها بخمسين يَومًا، وعندما ذكر الحادثة خاطبه بقوله : (رَبُّكَ) أنتَ يا محمَّدُ ولم يَقُلْ رَبُّ البيتِ وهو الذي رَدَّهُم عَن البيتِ.

ولما ذَكَرَ الهِدَاية للأُمَمِ، ممن يُثَبِّتهُم الله، ويعْلَمُونَ صِدْقَ أنبيائِهم ويتَّبِعُونَهم، وممن يُزِيغهُم الشَّيطَانُ ويُلَبِّسُ عَليهم قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٤]

هذا الذي بُعِثَ به النَّبِيُّونَ.

مِن أين عَلِمَ الموفقون أنه الحقّ؟

قال: ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾، وهو ربُّ الأنبياء كلهم لكن خصَّه بخطابه بذلِكَ لأنَّ إيمانَ الأمم السابقة له صِلَةٌ بالجناب الشَّريفِ؛ فقَالَ: ﴿ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ صلى الله عليه وسلم.

وإذا تأملتَ الخِطَابَ في القُرآن الكريمِ وَجَدْتَ الرَّبَّ عِندما يذكر عظيمَ تجلٍّ مِن تجلياته على عِبَاده، بهدايةٍ أو يذكُرُ شيئًا في الكون مِن آياته، يقول له: ﴿رَبُّكَ﴾، فيخصه بمحمَّد صلى الله عليه وسلم، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ.

وفي إضافة الرُّبُوبيَّةِ إلى المخصوصين خُصُوصِيَّةٌ؛ ولهذا كان يقول صلى الله عليه وسلم في دعائه: «اللهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَرَبَّ إِسْرَافِيلَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ حَرِّ النَّارِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ»[1] فأينَ باقي الملائكة أليس ربُّهم؟

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى عن عائشة، باب الاستعاذة من حر النار (٧/ ٢٣٤/ ٧٩٠٥)

بلى .. ولكن في هذا خصوصية.

ولأجل هذا المعنى في الألوهية يقولُ أولادُ سيِّدِنا يعقوبَ لأبيهم يعقوب ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]

فهل هو إله يعقوبَ وإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ فقط؟

هو إلهُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فِيهِنَّ، وإلهُ كلِّ شيء. والمعنى : أننا نمشي على طريقتك، وَسِرِّ ألوهيته لك التي تعرَّف بها عليك وعَرَفته بها .

ولما أراد أن يعلِّمَنا الاستعاذة مِن الشُّرُورِ عَامَّةً جاء بالربوبية لعُمُومِ الخلق؛ فقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ١ - ٢] من جميعِ المخلوقات التي خَلَقَها وشَقَّها.

فلما أراد الاستعاذةَ والتحصُّنَ لَنَا مِن شرِّ إبليس الذي يوسوسُ لنا، جاء بربوبيته للناس فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٤]

وهو ربُّ كل شيءٍ فلماذا خصَّ الناس فقط؟

لأنَّ لهُ سبحَانه وتعالى نظرٌ خَاصٌ إلى النَّاسِ، ففيهم معصومون ومحفوظون مِن أنبياء ومقربين وصالحين، فباسم الربوبية نستعيذ مِن إبليس وجنده، وهو الذي يَرُدُّ كيدَهُ عنَّا.

فاعلم عظمة الربوبية، وسِرَّ الربوبية، فلا ربَّ سواه، ولا إله إلا هو تعالى في علاه.

كيف تعصي الذي مِن نطفة جلَّ سوَّاكْ

ثم غَذَّاكَ بإحسانِهْ ونَمَّا وربَّاكْ

مَن الذي خلق رُوحَك وجَسَدَكَ وحوَّله من نطفة إلى علقةٍ ثم إلى مضغةٍ ثم إلى عظامٍ ثم كسى العظام باللحم حتى أنشأكَ خَلقًا آخرَ ونفخ فيك الرُّوحَ؟

لا إله إلا هو..

قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٠]

فأخرجك مِن بطن أمك، وقبلَ أن تخرُجَ مِن بَطْنِ أمِّكَ انقَلَبْتَ في بطنِها فمَنِ الذي علَّمَكَ أنْ تنقَلِبَ؟ ثم مَن الذي ألهمَكَ بلعَ الطَّعامِ وقَبْضَ الثَّدْيِ وقد كنتَ تتغذَّى في بطنِ أمِّكَ مِن حبل السُّرَّةِ؟

جلَّ الذي ربَّاك، فكيف تنساه أو تعاند أمره وقدْ أعطاكَ كُلَّ القُوى التي فيك؟

يجبُ أن نخضعَ لَهُ، وأن نَعْرِفَ إحسانه وتربيته لنا، وإحاطته بنا، وقدرته علينا سُبحانه وتعالى؛ وأنَّهُ مالكُنا، ومُدبِّرُ أمرِنا، ومُربِّينا، والمنعمُ علينا.

وقد علَّم رسولُ الله أمَّ سَلَمَةَ هذا الدُّعاء " اللهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ مَا أَحْيَيْتَنَا "[1]

فيا ربَّ محمَّدٍ انظرْ إلينا بمحمَّدٍ وثَبِّتْنَا على دَرْبِهِ وزِدْنَا إيماناً ويقينًا، وإخلاصاً وصدقاً وتوفيقًا.

اللهم بِسِرِّ ربوبيتك له رَبِّنَا وصَفِّنَا عَن جميع شوائبنا، واسقنا مِن أحلى المشارب مِن مشاربِ حبيبنا، وأنت راضٍ عنا برحمتك يا أرحم الراحين.

(القَدِيرُ) : القَدِيرُ اسْمٌ وَصِفَةٌ للحَقِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ على صِيغَةِ المبالَغَةِ ، أي : وَاسِعُ القُدْرة، عظيمُ القُدْرَةِ، مُطْلَقُ القُدْرَةِ.

والقُدْرَةُ صفةٌ قائمةٌ بذاتِ ربِّنا جَلَّجَلَالُهُ، يُوجِدُ بها ما يشاء ويُعدِمُ بها ما يشاء على وِفْقِ الإرادَةِ والعِلم.

وكلُّ ما سُمِّي قُدْرَةً مما آتاه اللهُ الكائِنَاتِ فمجازية مُؤتاةٌ من قِبَلِهِ تعالى، وليس لِقادرٍ مِن أهلِ الأرض والسَّماءِ على شَيءٍ مما أقدره الله تعالى عليه استقلالاً بقُدْرَتِهِ تلك؛ ولكنها مِنحَةٌ من الحق مَتَى شَاءَ رَفَعَها؛ فالقديرُ على الحقيقةِ هو اللهُ وَحْدهُ.

والقُدْرَةُ هُو الوَصْفُ العَظِيمُ الذي تعلَّق بأَسَاسِ مَعْرِفَتِنا بالله، والمَقْصَدِ الأسمى مِن خَلقِ الوُجُودِ والكَونِ، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة (٤/ ٢٠٠/ ٢٦٥٧٦) الناشر: مؤسسة الرسالة .

ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]

فَحِكْمَةُ خَلْقِ الوُجُودِ كُلِّهِ أن نَصِلَ إلى هذِهِ الرُّتْبَةِ الرَّفِيعَةِ مِن العِلْمِ بِقُدْرَتِهِ وإحاطَتِهِ عِلماً بكلِّ شيء.

فالقُدرَةُ الذاتِيَّةُ الأزَلِيَّةُ الدَّائِمَةُ ليستْ إلا لَهُ وَحْدَهُ جَلَّجَلَالُهُ، ومَن عَرَفَها لم يَعْتَمِدْ على غيرِه، ولم يستندْ إلى سِواهُ، وصَدَقَ في رُكُونِهِ إليه، وتَوَكُّلِهِ واعتمادِهِ عليه، ومَن عَرَفَها هابَه، ومَن عَرَفها لم يستصعبْ شيئاً يُرِيدُهُ مما فيه مَرضاةُ هَذا الرَّبِّ القديرِ جَلَّجَلَالُهُ.

فقدرة الله طليقةٌ يُقِيمُ بِها الأسبابَ، ويُبطِلُ بها الأسبابَ، وقُدْرَةُ الخَلْقِ قَائِمةٌ على مَا آتاهم الحقُّ المسبِّبُ مِن أسبابٍ، وإذا استعملوا الأسبابَ لم يستطيعوا أن يُوقِفُوها أو يَمنَعُوها، فمثلاً: جَعَلَ اللهُ النارَ سببَ الإحْرَاقِ، فلا يَمْلِكُ أَحَدٌ بما آتاه اللهُ مِن قُدْرَةٍ أن يُدخِلَ شيئاً مِن الموادِ المحتَرِقَةِ في النار ثم يقول لها: لا تحترقي.

بل هو قادرٌ على أنْ يَقُومَ بِقُدْرَتِهِ في حَيِّزِ السَبَبِيَّةِ التي أعطاه الله إيَّاها فقط بمنع تِلكَ المادَةِ مِن الاقترابِ مِن النَّارِ، لكنْ أنْ يُدْخِلَهَا النَّار ثُمَّ يقولُ لها: لا تحترقي فهذا مما لا يَقْدِرُ عَلَيهِ المخلوقُ، لكنَّ الحَقَّ يفعلُ مَا يَشاءُ.

وهذا ليس في نَارِ الدُّنيَا فَحَسْبُ، كَمَا حَصَلَ مَعَ سَيِّدِنَا إبراهيمَ عندَما دَخَلَ النَّارَ فَلَمْ تُحْرِقْهُ، بل فيما هُو أَشَدُّ مِن هذِهِ النَّارِ وهي نارِ الآخِرَةِ الشَّدِيْدَةِ التي تحرِقُ الكُفَّارَ والفُجَّارَ والعُصَاة، لكنها لا تحرِقُ الملائِكَةَ الذين يدخُلُون إليها، ولا تحرِقُ

الشُّفَعَاءَ الذين يدخُلون إليها لإخراجِ مَن يَأْذَنُ اللهُ لهم بالشَّفَاعَةِ فِيهم، فسبحان القديرِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ.

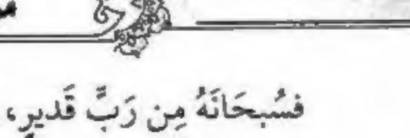
والآدَمِيُّ قَبْلَ أنْ يُطْلِقَ الرَّصَاصَةَ يستطيعُ أن يَصْرِفَها في أيِّ اتجاهٍ، لكن إذا انطلقتْ فلا يستطيعُ صَرْفَها عَن هَدَفِهَا الذي رَمَى إليه، لكن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُصِيبُ مَا يَشَاءُ ويُبطِلُ مَا يَشَاءُ.

وقد كانَتِ الرِّيحُ تَهُبُّ في وقتٍ واحدٍ في غزوة الخندَقِ على مُعَسْكَرِ النَّبِيِّ ومُعَسْكَرِ المشرِكِين؛ لكنَّها تَهُبُّ على مُعَسْكَرِ النَّبِيِّ لطيفةً لا تَقْلَعُ خَيمَةً ولا تَكْفَأُ قِدْرًا، فلما وَصَلَتْ إلى مُعَسْكَرِ المشركين صَارَتْ شديدةً مُزعجةً، اقْتَلَعَتْ خِيامَهم وكَفَأَتْ قُدُورَهُم وهي رِيحٌ واحدةٌ على مُعَسْكَرَيْن لا يَفْصِلُ بينَهُما سِوَى خَنْدَقٍ.

وفي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ كانَتِ المطَرُ تَنزِلُ عَلى مُعَسْكَرِ النَّبِيِّ فتُثَبِّتُ لهم الأرْضَ قَالَ تَعَالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]

أما في مُعسكرِ المشركين فكانتْ زَلَقًا عَليهم وهي مَطَرٌ وَاحِدَةٌ، فسُبحانَ القدير.

وكانتِ الرِّيحُ تَهبُّ على سيِّدِنا هُودٍ وجماعَتِهِ مِن المؤمنين لَطِيفَةً بارِدَةً، أمَّا على الكُفَّارُ فكانَتْ شَنِيعةً شدِيدَةً عَليهم، وكَانَتْ تَأْتِي على الرِّجَالِ والمواشِي فترفَعُهُم مِن الأرضِ وتَطِير بِهِم إلى السَّماءِ حتى يُصْبِحَ الواحِدُ منهم كالرِّيشَةِ، ثم تَضْرِبُهم عَلى الأرْضِ.

فسُبحَانَهُ مِن رَبٍّ قَديرٍ، ومَن مَعَهُ هَذا الرَّبُّ وَعَرَفَ الرُّكُونَ إليهِ فَمِنْ أينَ يأتِيهِ الهَمُّ أو الغَمُّ أو الكَدَرُ أو الخَوْفُ أو القَلَقُ.

أَكْرَمَنَا اللهُ بِشُهُودِ قُدْرَتِهِ، ولَاطَفَنا بِعَظِيمِ مُلاطفته، ورَزَقَنا حُسْنَ النَّظَرِ فيما يُرضِيه عنَّا في الحِسِّ والمعنى آمين اللهم آمين.

(مَا رِيحُ الصَّبَا مَالَتْ بِالغُصُونْ) : وَلَقَدَ جعل الله تعالى في هُبُوبِ الرِّياحِ مَعانٍ واسعاتٍ، فجَعَلَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مما يَهُبُّ مِن الرِّيحِ ما يُسَمَّى بالصَّبَا، ومَا يُسَمَّى بالدَّبُورِ.

والصَّبَا مَا يَهُبُّ مِن جهةِ المَشْرِقِ، وهذه الرِّيحُ أشَار إليها صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[1]، وريح الصبا هي مما يُتَفَاءَلُ به، وتكُونُ مِن عَلامَاتِ إدْرَاكِ السُّؤْلِ والمأمُولِ.

والدَّبُورُ تَهُبُّ مِن جِهَةِ المغرِبِ إلى جِهَةِ المشرِقِ، ويكون فيها أنواعٌ مِن العَذَابِ والضُّرِّ، ومِنه الريح التي هَبَّتْ على قَومِ عَادٍ، التي وَصَفَها اللهُ بالرِّيحِ العَقِيم، قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ – ٤٢] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]

وألطفُ الرِّيَاحِ التي تَهُبُّ.. النَّسِيمُ، وهي ما يَهُبُّ وقتِ السَّحَرِ وأوَّلِ الفَجْرِ فهذا ألطفُ الرِّيَاحِ؛ وقد اكتشَفَ أهلُ الظَّاهِرِ أنَّ في خُروجِ ما يُسَمَّى بالغَازِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس، باب غزوة الخندق (٥/١٠٩/ ٤١٠٥)

الثَّقِيلِ في تَنَفُّسِ الهَوَاءِ مَا بينَ آخِرِ الليلِ إلى طُلُوعِ الشَّمْسِ، يكونُ في استنشاقِهِ قُوَّةٌ للجَسَدِ، وخَاصِيَّةٌ في إذْهَابِ أنواعِ الكَدَرِ والهَمِّ عَنِ النَّفْسِ، فيتعرَّضُ لَهُ مَن كَانَ يمشِي في هَذا الوقت؛ في خروجه لأدَاءِ صَلاةِ الصُّبْحِ، أو لحضور مجالسِ الأسحَارِ، ويُحْرَمُ مِنهُ أربابُ النَّوْمِ والغَفْلَةِ.

ثم إنَّ كلَّ شيءٍ بِيَدِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا تأثِيرَ لِرِيحٍ ولا غيرها في إيجادِ الأشياءِ، ولكنها عَلامات يقيمُها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الفعَّال لما يريد .

وهناك نَسَائِمُ ورِيَاحٌ مَعْنَوِيَّةٌ تَهُبُّ مِن ألطافِ الله، وعَجَائِبَ جُودِهِ وإحسانِهِ، يتحدَّثُ عنها الصَّالحونَ كما في قولهم:

أو هبَّتِ النَّسَمَاتُ بالعَرْفِ المعنبَرِ في السحر

وأشارَ الإمام في هَذِهِ الأبياتِ إلى رِيحِ الصَّبَا، التي في هُبُوبِها عَلامةٌ لِنَصْرِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأهْلِ الحَقِّ والهُدى .

جَعَلَنا اللهُ مِمَّنْ تهُبُّ عليه نسماتُ اللُّطْفِ والعَطْفِ والرِّضَا، ورَزَقَنَا حَقِيقَةَ المحبَّةِ والصِّدْقِ والإقبالِ بالكُلِّيَةِ والتَّسْلِيمِ لما بِهِ قَضَى، ورَعَانَا رِعَايَةً يَقِينَا بها الأسواءَ في السِّرِّ والنجوى، وألحقَنَا بها في أهل التقوى في لطف وعافية.